

دكتور السيد عبد القادر عثيمين

كلية اللغة العربية - جامعة الأزهر

نشأة البدوين وتطوراته

من العصر الجاهلي حتى أواخر القرن الثاني الهجري

الطبعة الأولى

١٤١١ هـ - ١٩٩١ م

مطبعة الأفانيم

٣ شارع جزيرة بدران شبرا - مصر

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

نحمد الله تبارك وتعالى ونصلي ونسلم على النبي العربي الكريم
محمد بن عبد الله عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم •

وبعد ...

فإن قضية التدوين قضية شائكة وبخاسة في الجاهلية وجزء من
صدر الاسلام ، وقد كثرت فيها الآراء ووجهات النظر بين ناف ومثبت •
بين من يعمم الحكم عليهم بأنهم أمة أمية وفقا لظاهر النصوص القرآنية
فلا يعرفون التدوين الذي يلزمه معرفة الكتابة والقراءة •

وبين من يعتبر الغلبة ويعمم الحكم عليهم من خلالها ، فهم أميون
بالغلبة ، وهذا لا ينفي وجودها في كل مكان ، ومعرفة بعض الأشخاص
لها ، لا يعني معرفة الجميع لها ، ومعنى هذا أنها وجدت في بعض
الاماكن بصورة قليلة جدا وفي بعضها الآخر لم توجد على الإطلاق •
وما دونوه من آثارهم الأدبية أو العلمية كان قليلا جدا وأظهرته
إشارات الشعراء وغيرهم لها • ولذلك كان القرآن الكريم صادقا حينما
عبر عنهم بأنهم أمة أمية •

وهذا ما دفعنى الى تتبع نشأة التدوين وتطوره منذ العصر الجاهلى حتى أواخر القرن الثانى الهجرى فى هذه المعالجة التى أظن أنها وافية على قلة صفحاتها • وأنا فى بحثى هذا أميل الى أن الكتابة كانت معروفة لبعضهم ، ودونت بها بعض أشعارهم وآثارهم ، وذكرت أدلة كثيرة فى ثنايا البحث تثبت ذلك •

ولما كان الاسلام داعيا للنضارة والرقى ، فقد كبر حجم الكتابة واتسعت دائرتها فيه ، ودون القرآن الكريم وبعض أحاديث الرسول — صلى الله عليه وسلم — كما دونت كتب النبى — صلى الله عليه وسلم — ومغازيه وسيرته ، وكتب خلفائه الراشدين •

وفى العصر الأموى اتسعت دائرة الكتابة ، وظهرت الحاجة اليها فى جميع أرجاء الدولة الاسلامية ، وهذا ما شجع على اتساع موجة التدوين لصنوف العلوم والمعارف ، فكان حال الكتابة والتدوين فى هذا العصر أكثر من ذى قبل •

ولكن كلما تقدم الزمن كلما اتسعت المسافة بين زمن الابداع وزمن تقييد هذا الابداع وتدوينه وبخاصة الذى كان مرويا ، فظهرت دواعى التدوين العام وكانت ضرورية وملحة • اذ مات كثير من الرواة ، واختلطت الأسعار وأنواع المعارف فى أذهان بقيتهم ، ودخل الاسلام غير العرب ، وهذا من شأنه أن يدخل اللحن واللغط فى العربية ... الى غير ذلك من الدواعى والعوامل الكثيرة التى دفعت كثيرا من العلماء والشعراء والنقاد الى التوفر على جمع الشعر وسائر

العلوم والفنون في كتب حفظها لها من الضياع ، وحتى تكون سهلة
ميسرة في أيدي العرب والمعجم على السواء .

وقد تفرغت عن أصولها علوم ومعارف جديدة تحدثنا عنها في
نهاية هذا البحث .

نسأل الله تبارك وتعالى أن يكون عملنا هذا خالصا لوجهه وأن
ينفع به . انه خير مأمول وأكرم مسئول .

الزقازيق

في ١٥/٣/١٩٩١

دكتور

السيد عبد القادر عويضة

الفصل الأول

الكتابة والتدوين في العصر الجاهلي

بالرغم من غلبة الأمية على عرب الجزيرة العربية قبل الاسلام واشتبارهم بها ، وقد شهد القرآن الكريم بذلك فقال الله تعالى : « هو الذي بعث في الأمين رسولا منهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وان كانوا من قبل لفى ضلال مبين » (١) .

الا أنهم منذ جاهليتهم ومع غلبة الأمية عليهم قد اشتبهوا أيضا بالفصاحة والبلاغة والبيان ، وخابوا بسليقتهم وفطرتهم العربية شعراء وخطباء تنسب إلى الإنسان المعاني البليغة والسمات الفصيحة والحكم والمواظ والامثال العربية التي تدل على تجربة في الحياة وخبرة ودريه . فضلا عن العلوم والمعارف المختلفة التي اشتبهوا بها والتي تتصل بالانساب والطب والافناء والقيافة والفراسة ... وغيرها من المعارف المختلفة التي لا تقوم على البحث والتحليل والاستقصاء بقدر ما تقوم على التجربة والممارسة والخبرة ، وهي على كل حال علوم ومعارف بسيطة لا تخضع لقوانين أو مقاييس منظمة ، وانما تخضع للتجربة القاصرة ، كما يقول ابن خلدون في مقدمته : « وللبادية من أهل العمران طب يبنونه في غالب الأمر على تجربة قاصرة على بعض الأشخاص ، ومتوارثة عن مشايخ الحى وعجائزه . وربما يصح منه البعض الا أنه ليس على قانون طبيعي » (٢) .

(١) سورة الجمعة آية : ٢ .

(٢) مقدمة ابن خلدون ، ص : ١٢٣ .

وهذا الكلام لا يكون خاصا بالطب وحده ولكنه ينسحب على غيره من معارف العرب وعلمومهم ، الا أنه يدل على نوع ولو بسيط من الحضارة والرقى على كل حال .

ولكن اشتهارهم بالأمية لا يلغى معرفة بعضهم القراءة والكتابة ، وقد ذكر البلاذرى : « أن الاسلام قد جاء وفى مكة سبعة عشر كاتباً ، وفى المدينة أحد عشر كاتباً » (٣) .

وان كان المظنون أن عددهم فى هاتين المدينتين كان أكبر من ذلك (٤) . اذ يذكر ناصر الدين الأسد عدداً غير قليل منهم فى الجاهلية وأكثرهم من الشعراء والأدباء الذين كتبوا لأنفسهم وغيرهم ، وربما دونوا بعض شعرهم . منهم : عدى بن زيد العبادى الذى كان كاتباً بالعربية والفارسية على السواء ، ومنهم لقيط بن يعمر الإيادى والمرقش الأكبر وأخوه حرمة ، وسويد بن صامت الأوسى ، وعبد الله ابن رواحة ، وكعب بن مالك الأنصارى ، الربيع بن زيد العبسى ، والزبرقان بن بدر ، والفابعة الذبيانى ، وكعب بن زهير ، ولبيد بن ربيعة العامرى ، وأمّية بن أبى الصلت ، ومسروق بن عبد الرحمن ، وشريح بن الحارث الكندى . . . وغيرهم كثيرون (٥) .

وبعد استقراء من الدكتور الأسد للشعر الجاهلى ودراسة عميقة متأنية أفرداها للكتابة وأدواتها وآلاتها وما يكتب عليه وموضوعات الكتابة توصل الى عدة نتائج .

(٣) فتوح البلدان ص : ٤٧١ طبعة أوروبا .

(٤) راجع المصادر الأدبية واللغوية فى التشرات العربى ص : ١٣

د/ عز الدين اسماعيل ط ٣ دار المعارف المصرية ، ونشأة الكتابة الفنية فى الأدب العربى ص : ٢٣ د/ حسين نصار .

(٥) راجع مصادر الشعر الجاهلى : ص ١١٤ د/ ناصر الدين الأسد

« الأولى : تقدم الكتابة في بلاد العرب ، فقد استبان لنا بالدليل المادى الملموس الممثل في النقوش الحجرية المكتشفة أن عرب الجاهلية قد عرفوا الكتابة بالحروف العربية منذ مطلع القرن الرابع الميلادى ، وكتبوا بهذا الخط العربى ثلاثة قرون قبل الاسلام على أقل تقدير » .

والثانية : معرفة حرب الجاهلية بالكتابة معرفة فيها شيء من الانتشار يبعد عنهم ما وصموا به من الجهل بها .

والثالثة : اقتناع ميدان الكتابة وتشعب موضوعاتها . . . (٦)

ومعنى هذا أن الكتابة كانت معروفة لبعض العرب في الجاهلية ، الا أن المعرفة كانت محدودة في حواضر العرب وأقل من ذلك في بواديهم التى غالبا ما تكون راحلة ، فلم يتيسر لها تدوين آثارها على المتعسر من ألواح الكتابة وهي : الحجارة والعظم والخشب والجاد والعسيب والقماش ، بأقلام خشبية أو أدوات النحت والنقش .

ولذلك ما دون من آثارهم الأدبية كان أهادا لا يبرر تعميم الأمية عليهم ، وعدم تدوينهم لتراثهم في سجلات مكتوبة لقصور أدوات الكتابة والراحلة في عهدهم . ولعدم نضجهم في هذه الناحية . ولذلك « قصروا تدوينهم على ما اقتضته الضرورات الاجتماعية والاقتصادية ، من الصكوك والعهود والأحلاف والمواثيق ، والرسائل المقتضبة ، والكتب الدينية ، والقليل من الشعر ، أما كثرة الغالبة فكان مجال حفظها الذاكرة والرواية » (٧) .

(٦) نفسه . ص : ١٠٧ .

(٧) دراسة في مصادر الأدب . الطاهر أحمد مكي ص : ١٣ ط ١٩٨٦

دار المعارف .

ولذا فإن ما كتب ثان يحمل في طياته نوعين من الكتابة في عهدهم:
 الكتابة الساذجة النيسرية التي استخدموها في حياتهم وتجاربهم •
 والكتابة الراقية التي دونوا بها شعرهم وبعض آثارهم • وهذا
 ما ذهب إليه ناصر الدين الأسد حين قال : « أن عرب الجاهلية قد
 عرفوا من الكتابة صورتها الساذجة النيسرية حين كتبوا رسائلهم ،
 وصكوك حسابهم وعهودهم ومواثيقهم ، ونقشوا خواتيمهم وشواهد
 قبورهم • وهذه كلها لا تتجاوز في حجمها صحيفة واحدة قد تنقص
 قليلا أو تزيد قليلا •

وقد عرفوا من الكتابة صورة أخرى أرقى من هذه الصورة
 الساذجة وأكبر حجما ، وأشد تعقيدا ، وهي التدوين • والفرق بين
 الصورتين واضح إذ أن الأولى لا تعنى أكثر من مجرد التقييد العابر
 لما يعرض من شئون الحياة ، ولكن التدوين إنما يعنى جمع الصحف
 وضم بعضها إلى بعض حتى يكون لنا منها ديوان ، وهو مجتمع
 الصحف • ولا بد للتدوين من أن يكون عملا مقصودا متعمدا يرمى إلى
 هذه الغاية ، لا عملا عابرا عارضا (٨) •

ومما يقوى هذا الرأي ما ورد في الشعر الجاهلي من ذكر الكتاب
 والكتب كثيرا ، ومن ذلك قول معقل بن خويلد الهذلي — وهو شاعر
 جاهلي أدرك الإسلام •

فأني كما قال مملئ الكتاب ب في الرق إذ خطه الكاتب •
 « يرى الشاهد الحاضر المطمئن من الأمر ما لا يرى الغائب »

وقول بشر بن أبي خازم — وهو شاعر جاهلي لم يدرك الإسلام:
 وجدنا في كتاب بن تميم « أحق الخيل بالركض المعار »

ويعلق الأسد على بيت بشر فيقول : « فيشر يذكر في وضوح أنه وجد في كتاب بنى تميم أن أحق الخيل بالركض المعار » .

ثم يقول : « فما هو كتاب بنى تميم إذن ؟ الذي نراه أن كل قبيلة من القبائل كانت تجمع شعر شعرائها ، وحكم حكمائها ، وأقوال خطبائها ، وأخبارها ومفاخرها ومآثرها ، وأنسابها في كتاب . وقد احتفظ العرب بهذه التسمية لكتب القبائل بعد ذلك في العصور الإسلامية اتدل على هذا نفسه الذي قدمنا » (٩) .

ولكنه مع هذا التبع لمعارف العرب وتدوينهم لمآثرهم . فان بعضا من الدارسين والباحثين يبدى في حديثه ملامح النفي لتدوين العرب لتقى من معارفهم وآثارهم متكنا في ذلك على غلبة الأمية والبداءة وعمى الحياة وعدم استفراها عندهم . فلم يتركوا سوى بعض النقوش القليلة في بعض المناطق من أطراف الجزيرة العربية ، أما في باطنها فلم تسعفهم أصحابى التي عاشوا عليها شيء من ذلك . وفي هذا يقول عمر الدقاق : « لم يكن للعرب في فترة ما قبل الإسلام ثقافته مدونة وعلوم مسجلة . فقد غلبت عليهم البداءة ، واستغرق في حياتهم المتقل ، نشأت فيهم الأمية ، ولم يتركوا خلال هذه الحقبة المديدة الغامضة من فجر حياتهم سوى نقوش قليلة تنبئ عما كان لهم من دور حضارى ، حتى أن هذه النقوش لم تكن متوفرة إلا في بعض المناطق العربية كجنوبى جزيرة العرب وشمالها حيث توجد الأحجار والصخور ، على حين كان باطن الجزيرة وأكثر ربوعها سهوبا وصحارى لم تسعف سكانها العرب في ترك مياسمهم على الأرض التي عاشوا فيها أحقابا مديدة (١٠) » .

(٩) المرجع نفسه ص : ١٦٣ ، ١٦٤ .

(١٠) مصادر التراث العربى . عمر الدقاق ص : ٧ مكتبة

دار الشروق - بيروت .

ويرى شوقي ضيف أن معرفة العرب للقراءة والكتابة في الجاهلية كانت محدودة : « فأم يكتبوا بها كتباً ولا قصصاً ولا رسائل أدبية وإنما كتبوا بها بعض أغراض تجارية ، وأخرى سياسية ، ولذلك لم يكن غريباً أن تشيع في مكة لأنها كانت مركزاً تجارياً عظيماً (١١) » .

كما يرى أن الكتابة المعروفة في العصر الجاهلي لم تكن تؤدي بمقاييس الكتابة في العصر الحديث ، وإنما كانت : « الكتابة ساذجة أدت أغراضاً خاصة في عصرها وانتهت بانتفاء الغرض » (١٢) .

وهناك من يقف موقفاً وسطاً في هذه القضية بين من يثبت نضج العرب الفني وتدوينهم لبعض شعرهم ومآثرهم ، وبين من يرجع نفى ذلك وقصور الكتابة على أغراض التجارة والعهود والمواثيق وغيرها .

ومن هؤلاء المستشرق الفرنسي (بلاشير) الذي لا يشك في تدوين بعض العرب لبعض قصائدهم الشعرية في بعض المراكز الحضارية آنذاك . ولكنه يقلل حجم التدوين بالنسبة للرواية الشفوية التي كانت أكبر حجماً وأوسع انتشاراً وبعداً فيقول : « لاشك في أن بعض الرواة في بعض المراكز الحضرية قد دونوا كتابة بعض القصائد الهامة ، ولكن ذلك يعوزه الدليل . حتى لو سلمنا بصحة وقوع ذلك فإن التدوين لم يشمل إلا جزءاً من آثار الشعراء الحضريين ، أما البقية فقد سارت في الصحراء عن طريق الرواية الشفوية .

وخلاصة القول : فإن الرواية الشفوية وحدها تؤلف الطريقة الأساسية لنشر الآثار الشعرية ، منذ اللحظة التي قذف فيها الشاعر روائحه تلك الآثار في خضم الجماهير » (١٣) .

(١١) الفن ومذاهبه في النثر العربي ١٩ شوقي ضيف .

(١٢) نفس المرجع والصفحة .

(١٣) تاريخ الأدب العربي . بلاشير ترجمة إبراهيم الكيلاني ١٩٦٠ :

طبعة دمشق ١٩٧٣ م .

وبالفعل فإن الطريقة التي سادت في انتشار الشعر وغيره من الآثار الأدبية بل وغيرها من معارف العرب كانت الرواية الشفوية التي كانت لهم بمثابة مدرسة يتعلمون فيها نظم الشعر وصياغة الكلام والتمرس على فنونه بحيث يصبح الراوية شاعرا له من الخصائص الفنية ما لسابقه ولاحقة (١٤) . أو غريب من ذلك . والأمثلة على ذلك كثيرة من واقع حياة الشعراء الجاهليين وشعرهم . إذ كان زهير بن أبى سلمة راوية أوس بن حجر . وكان كعب بن زهير ، والحطيئة روايتي زهير ، وكان هذبة بن خثرم العذري راوية الحطيئة ، وجميل بثينة راوية هذبة ، وكثير عزة راوية جميل وهكذا .

ويتحدث الطاهر مكي عن دور الراوى في حفظ شعر الشعار والرواية عنه بأنه كان أكثر اهتماما ورواية وحفظا لشعر الشعار من قبيلة الشاعر نفسها ، وذلك لأن قبيلة الشاعر تحفظ من شعره ما يعلى قدرها ويرفع شأنها ويسمو بها بين القبائل وتقتاسى منه ما يمس شرفها وينزل من قدرها ، بالإضافة الى أن رجال القبيلة الواحدة ليسوا على قدم وساق في الحفظ والرواية لشاعرهم . وإنما يحفظ الشيوخ من شعره الحكمة والرباء والفخر والمديح ، ويحفظ الرجال المحاربون منه الحماسة والفخر ، ومديحهم وهجاء غيرهم ، ويحفظ الشباب منه الغزل وما يتعلق بعواطفهم . ولكن الرواية يحفظ هذا كله ويرويه عنه . يقول في ذلك الطاهر مكي : « وقد اضطلع الشعراء أنفسهم بدور هام في الرواية ، فكانت لهم المدرسة التي يتعلمون فيها صوغ الشعر ونظمه والتمرس بأساليب الكلام وفنون القول ، ومن أراد أن يصبح شاعرا لزم واحدا من فحولهم ، يحفظ عنه ، ويروى له ، ويترسم

خطاه ... ويصبح دور الراوى أكثر أهمية بعد وفاة الشاعر ، لأنه يتعدى مهمة نشر قصائده الى جمعها : وإظهار الظروف والمناسبات التى أوحى بها ، وتفسير الاشارات التاريخية التى تتضمنها ، ويصبح بحكم الواقع أمينا على تراث حياة صانعه ، ومنهنا اهتمام القبيلة التى تنسب فيها .

وكان شعراء كل قبيلة وأفرادها يروون شعر أسلافهم ، وظهور شاعر كبير فى القبيلة مدعاة للفخر ، والاحتفاظ بآثاره شئ تفرضه العصبية ، وضياعها أمر يمس شرف القبيلة ، وأصدقاء الشاعر يستظهرون بعضا من قصائده . وثمة فارق بين حفظ القبيلة وحفظ الراوية ، القبيلة تحفظ من قصيد شاعرها ما يعلى شأنها ، ويسجل أمجادها ، فإذا تعرض لحرب هزمت فيها تناست ذلك الشعر ، أو ما يمسها منه على الأقل ، وروايتها له لا تجرى على نسق واحد ، وإنما ترتبط بأعمار أفراد القبيلة وأمزجتهم ، يحفظ منه الشباب ما كان غزلا يمس العواطف ، ويردد الرجال ما كان حماسة تلهب المشاعر ، ويتمثل الشيوخ ما كان حكمة ترضى العقل . أما الراوية المحترفة فيحفظ ذلك كله ، الغزل والحماسة والحكمة ، والرثاء والهجاء والفخر ، ما بلغ فيه الشاعر القمة أو قصر عن الاجادة » (١٥) .

وهكذا كانت الرواية أكبر حجما وأكثر انتشارا من كتابة الشعر وتدوينه ، ولكنها لا تلغى الكتابة كلية وان كانت ضئيلة ومتناثرة هنا وهناك . إذ أن كليتهما كان لهما دورها فى التدوين فى نهاية القرن الثانى وبداية القرن الثالث الهجرى .

أدلة التدوين في العصر الجاهلي :

ومما يدل على وجود الكتابة واستخدامها في تدوين الشعر وغيره في العصر الجاهلي وأن التدوين العام في نهاية القرن الثاني وبداية القرن الثالث الهجريين قد قام عليها ، بالإضافة إلى الرواية الشفهية ، أمور كثيرة منها :

حديث بن مناذر الشاعر مع خلف الأحمر ، حين قال بن مناذر نخلف : « يا أبا محرز : ان يكن النابغة وامرؤ القيس وزهير قد ماتوا ، فهذه أشعارهم مخلدة ، فقس شعري إلى شعرهم ، واحكم عليها بالحق ، فغضب خلف . . . (١٦) . ولا بد أن تكون هذه الأشعار مكتوبة ، إذ أن تخليدها لا يكون بروايتها فقط ، لأن الرواة يضيع بموتهم علم وأدب كثير .

وما روى من أن أبا عبيدة وأبا حاتم السجستاني كانا يتدارسان الشعر الجاهلي في كتب — وكلاهما عاش في القرن الثاني الهجري — قال أبو حاتم : « جئت أبا عبيدة يوماً ومعى شعر عروة بن الورد ، فقال لي : ما معك ؟ فقلت : شعر عروة . قال : فإرغ حمل شعر فقير ليقرأه على فقير » (١٧) .

وقصة ابن الأعرابي « أبي عبد الله محمد بن زياد ١٥٠ — ٢٣١هـ » الذي كان كثير القراءة والمداينة في الكتب والأخذ بها والنظر فيها . يقال أنه : « لما بعث إليه أبو أيوب أحمد بن محمد بن شجاع غلاماً من غلمان ييسأله المجيء إليه ، عاد إليه الغلام فقال : قد سألتك ذلك فقال لي عندي قوم من الأعراب ، فإذا قضيت أرى منهم أتيت . قال

(١٦) معجم الأدباء ٣/ ١٧٢ .

(١٧) الزمر ١/ ١٦١ .

الغلام : وما رأيت عنده أحدا ، الا أنى رأيت بين يديه كتباً ينظر فيها ،
فينظر في هذا مرة وفي هذا مرة (٨) .

وهذا الأصمعي « عبد الملك بن قريب ١٢٣ - ٢١٦ هـ » قد قرأ
بعض دواوين الشعر الجاهلي على شيوخه . قال الأصمعي : « قرأت
شعر الشنفرى على الشافعى بمكة » (١٩) . وقال أيضا : قرأت على
أبى عمرو بن العلاء شعر النابغة الذبياني (٢٠) . وقال أبو حاتم
السجستاني : قرأ الأصمعي على ابن عمرو بن العلاء شعر الحطيئة (٢١) .
وقرىء يوما على الأصمعي في شعر أبى ذؤيب : بأسفل ذات الدير
أفرد جحشها . فقال أعرابى حضر المجلس للقارىء : ضل ضالك أيها
القارىء ، انما هى « ذات الدبر » وهى ثنية عندنا ، فأخذ الأصمعي
بذلك فيما بعد » (٢٢) .

أضف ، الى هذا وغيره من أدلة وجود الكتابة والتدوين في العصر
الجاهلي . تلك المعنقات السبع أو العشر الطوال التى استجادها العرب
فكفوا بها وفضلوها على غيرها من شعرهم . وينبع من اهتمامهم بها
وتفضيلهم أياها « أن عمدت جماعة من رجالاتها الى سبع قصائد
تخيرتها من الشعر القديم ، فكتبتها بما ، الذهب فى القباطى المدرجة
وعلقته فى أستار الدّابة ، فمنه يقال : مذهب امرئ القيس ومذهبه
زهير .. والمذهبات السبع ، وقد يقال لها المعلقات » (٢٣) .

(١٨) معجم الأدباء ٢٠٤/٣ .

(١٩) الزهر للسيوطى ١٦٠/١ .

(٢٠) الموشح للمرزبانى : ٤٢ .

(٢١) الزهر ٣٥٥/٢ .

(٢٢) الشعر والشعراء لابن قتيبة ٢٩/١ .

(٢٣) العقد الفريد لابن عبد ربه ١١٩/٦ .

ومن ذلك أيضا الصحيفة التي كتبها القرشيون في مقاطعة بنى هاشم
وبقي عبد المطلب حين اجتمعوا عليهم وتعاهدوا على مقاطعةهم فلا
يبيعونهم ولا يشتررون منهم ، ولا يزوجونهم ولا يتزوجون منهم *
ولا يكلمونهم ولا يردون عليهم .. وبلغ من المؤمنين الجوع مبلغا عظيما
فلجئوا الى شعب ابي طالب . وظلت الصحيفة التي كتبوها وعلقوها
في جوف الكعبة دهرًا من الزمان الى أن أخبر النبي - صلى الله عليه
وسلم - بأن الأرض أكلت حروف الكلمات في الصحيفة ولم تدع منها
الا أسماء الله .

يقول ابن هشام : « وذكر بعض أهل العلم : أن رسول الله -
صلى الله عليه وسلم - قال لأبي طالب : يا عم ! ان ربي الله قد ساط
الأرض على صحيفة قريش ، فلم تدع فيها أسما هو الله الا أثبتته
فيها ، ونفت منها الظلم والقطيعة والبهتان ، فقال : أريت أخبرك بهذا ؟
قال : نعم ، قال : فوالله ما يدخل عليك أحد ، ثم خرج الى قريش
فقال : يا معشر قريش ، ان ابن أخي أخبرني بكذا وكذا ، فهل الى
صحيفتكم ، فان كانت كما قال ابن أخي ، فانتهوا عن قطيعتنا ، وأنزلوا
عما فيها ، وان يكن كاذبا دفعت اليكم ابن أخي ، فقال القوم : رضينا ،
فتعاهدوا على ذلك ، ثم نظروا ، فاذا هي كما قال رسول الله - صلى
الله عليه وسلم - فزادهم ذلك شرا ، فعند ذلك صنع الرهط من قريش
في نقض الصحيفة ما صنعوا » (٢٤) .

ومن دلائل وجود الكتابة والتدوين كذلك في العصر الجاهلي ما ذكره
الفرزدق في شعره من أن دغفلا النسابة - وهو مخضرم أدرك الجاهلية
والاسلام - كان يكتب الأنساب ويدونها في الصحف . وهذا ما أشار
اليه الفرزدق في قوله :

أوصى عشية حين فارق رهنه عند الشهادة في الصحيفة دغفل
 أن ابن ضبة كان خبر والدا وأتم في حسب الكرام وأفضل (٢٥)
 وفي قصيدة الفرزدق هذه ما يفيد بأن بعض الشعر الجاهلي كان
 مكتوباً وأن الفرزدق قد قرأه عنهم في هذه • ومن ذلك قوله :
 والجعفرى وكان بشر قبله لى من قصائده الكتاب المجهل (٢٦)
 وقوله :

دفعوا الى كتابهن وصية فورثتهن كأنهن الجدل (٢٧)
 ومن ذلك أيضاً ما روى من أن لبيد بن ربيعة العامري — الشاعر
 الجاهلي الذي أسلم وحسن إسلامه — أرسل اليه عمر بن الخطاب
 يطلب منه ما قاله في الاسلام من الشعر فكتب اليه لبيد سورة البقرة
 في صحيفة ثم أتى بها فقال: أبدلنى الله هذه في الاسلام مكان الشعر (٢٨)
 وما روى من أن النابغة الذبياني وعدى بن زيد العبدي والربيع
 ابن زياد العبسي وغيرهم كانوا يكتبون القصائد ويرسلونها الى
 بلاط الخلافة معتذرين عاتبين (٢٩) •

وما يروى عن حماد الراوية من قوله : « أمر النعمان فنسخت له
 أشعار العرب في الطنوج — قال : وهى الكراريس — ثم دفنتها في قصره
 الأبيض ، فلما كان المختار بن أبى عبيد قيل له : إن تحت القصر كنزاً ،
 فاحتشره فأخرج تلك الأشعار (٣٠) •

(٢٥) النقائض ١/ ١٨٩ •

(٢٦) المصدر نفسه •

(٢٧) المصدر السابق •

(٢٨) خزنة الأدب للبغدادى ٢/ ٢١٥ •

(٢٩) مصادر الشعر الجاهلي ص : ١٦١ • ناصر الدين الأسد •

(٣٠) الخصائص لابن جنى ١/ ٢٩٣ •

ومن ذلك أيضا ما يشير اليه ابن هشام في السيرة النبوية من أن
سويد بن الصامت كان يحمل صحيفة فيها حكمة لقمان — وهو من أشهر
حكماء العرب في الجاهلية — وأنه ذهب بها الى الرسول — صلى الله
عليه وسلم — فقرأها عليه ، فقال له الرسول : ان هذا الكلام حسن ،
والذى معي أفضل من هذا — قرآن أنزله الله تعالى على ، هو نور
وهدى (٣١) •

وفي الفهرست لابن النديم أنه وجد كتاب في خزانة الخليفة
العباسي المأمون بخط عبد المطلب بن هاشم • وأن الكتاب كان في جلد
أدم وقد جاء فيه : « حق عبد المطلب بن هاشم من أهل مكة على فلان
ابن فلان الحميري من أهل وزل صنعا ، عليه ألف درهم فضة كيلا
بالحديدة ، ومتى دعاه بها أجابه : شهد الله والمكان » (٣٢) •

ومن ذلك أيضا ما روى عن الفضل الضبي « توفي سنة ١٦٨ أو
١٧٨ هـ » ، قال نه العباس ابن بكار : ما أحسن اختيارك للأشعار ،
فلو زدتنا من اختيارك • فقال الفضل : والله ما هذا الاختيار لى ، ولكن
ابراهيم بن عبد الله استتر عندي في « نحو سنة ١٤٥ هـ » فكلت أطوف
وأعود اليه بالأخبار ، فيأنس ويحدثنى ، ثم عرض لى خروج الى
ضيعتى أياما ، فقال لى : اجعل كتبك عندي لأستريح الى النظر فيها ،
فتركت عنده قمطرين فيهما أشعار وأخبار ، فلما عدت وجدته قد علم
على هذه الأشعار ، وكان أحفظ الناس للشعر ، فجمعته وأخرجته ،
فقال الناس : اختيار الفضل (٣٣) •

(٣١) السيرة النبوية لابن هشام ٦٨/٢ •

(٣٢) الفهرست ص : ١٣ ، ١٤ •

(٣٣) المزهر للسيوطى ٣١٩/٢ • وراجع : مقاتل الطالبين للأصفهاني

وهنا دليل قاطع على احتواء خزانة المفضل على شعر مكتوب وممدون عن الجاهليين والاسلاميين اذ أن المختارات المنسوبة اليه تتضمن شعرا للجاهليين والمخضمين والاسلاميين (٣٤) •

وكذلك كانت مختارات الأصمعي المسماة بالأصمعيات على غرار الفضليات اختار من شعر الجاهليين والمخضمين والاسلاميين ما سجله في كتاب نسب اليه وسمى باسمه ، وهذه المختارات من شعر العرب المكتوب والمروى (٣٥) •

كذلك حين ننظر في جبهة أشعار العرب لأبي زيد محمد ابن أبي الخطاب القرشي الذي عاش — على أرجح الأقوال — في النصف الثاني من القرن الثالث وشهد طرفا من القرن الرابع الهجري (٣٦) • وفي تقسيم الشعراء في هذا الكتاب الى سبع طبقات : وهم اصحاب المعلقات واصحاب الجملرات، واصحاب المنقيات ، واصحاب المذهبات، واصحاب المرائي ، واصحاب المشوبات — أي التي شابها الكفر والاسلام ، لأن اصحابها من المخضمين الذين عاشوا في الجاهلية والاسلام ، — واصحاب اللحمت — أي الملتحمة في نظمها •

كل هذه الأدلة القاطعة تشهد بوجود انتقوين في العصر الجاهلي واتساع حركته في العصور التالية له ، وكلما تطلبت الحاجة اليه •

ومن ذلك أيضا ما كان من أمر أسرى بدر اذ أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — جعل فداء بعض أسرى قريش في بدر ممن تعلموا

(٣٤) راجع الفضليات والأصمعيات •

(٣٥) المصدر نفسه •

(٣٦) راجع : المصادر الأدبية واللغوية في التراث العربي — عز الدين

اسماعيل ص : ٨٠ ، ٨١ •

الكتابة أن يعلموها عشرة من صبيان المدينة (٣٧) ، أى أن كل واحد من الأسرى الذين يقرءون ويكتبون يفدى نفسه بتعليم عشرة من أبناء المسلمين في المدينة القراءة والكتابة • وهذا دليل على أن كثيرا من العرب قبل الاسلام وفي مستهل الدعوة المحمدية كانوا يعرفون القراءة والكتابة ويفتخرون بذلك في حياتهم وتدوين معارفهم ، وكتابة عهودهم ومواثيقهم ، وأغراضهم التجارية •

وحينما نزل الوحي على رسول الله — صلى الله عليه وسلم — كتب له آيات القرآن الكريم جماعة من الرجال الذين أسلموا واثقوا في جاهليتهم يعرفون القراءة والكتابة ويسجلون بها حاجاتهم ومطالبات حياتهم • وعرف هؤلاء بكتاب الوحي ، وكان على رأسهم : عثمان ابن عفان ، وعلى بن أبى طالب ، وأبى بن كعب وزيد بن ثابت ، وخالد بن سعيد بن العاص ، ومعاوية بن أبى سفيان • • وغيرهم ممن كتب الوحي والمعاهدات والوثائق ، وغيرها من حوائج النبى — صلى الله عليه وسلم •

الى غير ذلك من الشواهد الدالة على وجود الكتابة في العصر الجاهلى بصورة ليست بالقليلة ، وان كانت لا تخالف التعميم بأنهم كانوا أمة أمية كما حكى القرآن الكريم ذلك • لكنها على كل حال تدل على وجود التدوين وبدايته الفعلية بصورة مبسطة منذ العصر الجاهلى وقبل مرحلة التدوين العام الذى كان في نهاية القرن الثانى وبداية القرن الثالث الهجرى ، والتي شملت جميع العلوم والمعارف آنذاك •

(٣٧) راجع : فجر الاسلام للأستاذ أحمد أمين ص : ١٧٠ ، حياة محمد

للدكتور / محمد حسين ميكل ص : ٤٩ ط ١٦ دار المعارف •

الفصل الثاني

الكتابة والتدوين في عصر صدر الاسلام

حين جاء الاسلام ونزل القرآن اتسعت رقعة الكتابة شيئاً فشيئاً وزاد حجمها وعلا شأنها وارتفعت منزلتها أكثر مما كانت عليه قبل الاسلام . وذلك لأن القرآن الكريم حث على تعلم القراءة والكتابة لأنها سبيل العلم والمعرفة ، فكانت أول آياته التي نزلت على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - هي قول الله تعالى : « بسم الله الرحمن الرحيم . اقرأ باسم ربك الذي خلق . خلق الإنسان من علق . اقرأ وربك الأكرم . الذي علم بالقلم . علم الإنسان ما لم يعلم » (١) .

وليس هذا فنحسب بل ورد في القرآن الكريم ذكر كثير للقلم والكتاب والابواب والقرطاس والصحف والمدايد ، من مثل قوله تعالى : « ن والقلم وما يسطرون » (٢) ، وقوله تعالى : « والطور وكتاب مسطور في رق منشور » (٣) ، وقوله تعالى : « بل هو قرآن مجيد . في لوح محفوظ » (٤) ، وقوله تعالى : « واو نزلنا عليك كتابا في قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا ان هذا الا سحر مبين » (٥) ، وقوله تعالى : « ان هذا لاذى الصحف الأولى صحف ابراهيم وموسى » (٦) ،

(١) سورة العلق الآيات من ١ - ٥ .

(٢) سورة القلم آية رقم : ١ .

(٣) سورة الطور الآيات ١ ، ٢ ، ٣ .

(٤) سورة البروج الآيتان : ٢١ ، ٢٢ .

(٥) سورة الانعام آية رقم ٧ .

(٦) سورة الاعلى الآيتان ١٨ ، ١٩ .

وقوله تعالى : « قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربي لنفد البحر قبل ان تنفذ كلمات ربي ، ولو جئته بمداد » (٧) .

وقوله تعالى : « ولم أنمنا في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله ان الله عزيز حكيم » (٨) .

وهذه أدلة قوية على اهتمام الله تبارك وتعالى وعنايته بالعلم وتحصيله ولا يكون ذلك الا بالقراءة والكتابة ولذلك ذكرهما وذكر أدواتهما وحض عليهما . وجعل الناس ليسوا سواء في الحياة الدنيا حين قال تعالى : « قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون ؟ إنما يتذكر أولوا الأبواب » (٩) ، أى الناس جميعا ليسوا سواء في العلم وعدمه ، وبالتالي فهم ليسوا سواء في الخشية من الله تعالى . ولذلك قال الله تعالى في القرآن الكريم : « إنما يخشى الله من عباده العلماء » (١٠) .

هذا فضلا عن أن الكتابة من الأمور الهامة في حياة الناس ومعاملاتهم . ولذلك حض القرآن الكريم على اتخاذها في المعاملات . والديون ، لتكون هناك وثائق بين المتدائنين اذ يقول الحق تبارك وتعالى : « يا أيها الذين آمنوا اذا تداييتم بدين الى أجل مسمى فاكتبوه وليكتب بينكم كاتب بالعدل ولا يأب كاتب أن يكتب كما علمه الله فليكتب وليملك الذي عليه الحق .. » (١١) .

(٧) سورة الكهف الآية رقم ١٠٩ .

(٨) سورة لقمان الآية رقم ٢٧ .

(٩) سورة الزمر آية رقم ٩ .

(١٠) سورة فاطر آية رقم ٢٨ .

(١١) سورة فاطر آية رقم ٢٨ .

(١١) سورة البقرة آية رقم ٢٨٢ .

بالتدوين هو القرآن الكريم الذي أنزله الله على رسوله — صلى الله عليه وسلم — بلفظه ومعناه في نحو ثلاث وعشرين سنة • وكان أصحاب النبي — صلى الله عليه وسلم — ورضي الله عنهم يكتبونه بأمر الرسول — صلى الله عليه وسلم — في الرقاع والعظام واللخاف وسعف النخيل • • وغيرها • وهذه هي المرحلة الأولى من كتابة القرآن الكريم وتدوينه •
فقد نقل السيوطي في « الاتقان » عن الحاكم في المستدرک قوله :
« مع القرآن ثلاث مرات :

أحداها : بحضرة انبى صلى الله عليه وسلم •

الثانية : بحضرة أبي بكر • روى البخارى في صحيحه عن زيد ابن ثابت قال : أرسل إلى أبو بكر « بعد » مقتل أهل اليمامة ، فدا عمر ابن الخطاب عنده ، فقال أبو بكر : ان عمر أتاني فقال : ان القتل قد استحر يوم اليمامة بقراء القرآن ، واني أخشى أن يستحر القتل بالقراء في المواطن ، فيذهب كثير من القرآن ، واني أرى ان تأمر بجمع القرآن • فقلت لعمر : كيف فعل شيئا لم يفعله رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ؟ قال عمر : هو والله خير • فلم يزل يراجعني حتى شرح الله صدرى لذلك ، ورأيت في ذلك الذي رأى عمر • قال زيد : قال أبو بكر انك شاب عاقل لا نتهمك ، وقد كنت تكتب الوحي برسول الله — صلى الله عليه وسلم — ففتتبع القرآن اجمعه • فوالله لو كلفوني نقل جبل من الجبال ما كان أثقل علي مما أمرني به من جمع القرآن • قلت كيف تفعلان شيئا لم ينعله رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ؟ قال أبو بكر : هو والله خير • فلم يزل أبو بكر يراجعني ، حتى شرح الله صدرى للذي شرح الله له صدر أبي بكر وعمر • فتتبع القرآن اجمعه من العسب واللخاف وصدور الرجال ، ووجدت آخر سورة التوبة مع أبي خزيمة الأنصاري لم أجد ما مع غيره ، لقد جاءكم رسول ، حتى

خاتمة براءة • فكانت لصحف عند أبي بكر حتى هوهاه الله ، ثم عند عمر
عند حياته ، ثم حفصة بنت عمر •

الثالثة : هي ترتيب السور في زمن عثمان • روى البخاري عن انس
أن حذيفة ابن اليمان قدم على عثمان وكان يغازي أهل الشام في فتح
أرمينية وأذربيجان مع أهل العراق ، فأفرغ حذيفة اختلافهم في القراءة
فقال لعثمان أدرك الأمة قبل أن يختلفوا اختلاف اليهود والنصارى ،
فأرسل إلى حفصة أن أرسلني إلينا انصح نفسك في المصاحف ثم
فردّها إليك فأرسلت بها حفصة إلى عثمان ، فأمر زيد بن ثابت وعبد الله
ابن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام
فنسخوها في المصاحف • ثم رد عثمان انصح إلى حفصة ، وأرسل
إلى كل أفق بمصحف مما نسخوا ، وأمر بما سواه من القرآن في كل
صحيفة أن يحرق » (١٣)

ركان « الفرق بين جمع أبي بكر وجمع عثمان : أن جمع أبي بكر
كان لخشيته أن يذهب من القرآن شيء بذهاب حملته ، لأنه لم يكن
مجموعاً في موضع واحد ، فجمعهم في صحف مرتبة آيات سورته على
ما وقّعه عليه النبي — صلى الله عليه وسلم • وجمع عثمان كان لما كثر
الاختلاف في وجوه القراءة حتى قرأوه بلغاتهم على اتساع اللغات ،
فأدرك ذلك بعضهم إلى تخطئة بعض ، فخشي من تفاقم الأمر في ذلك ،
فنسخ تلك الصحف في مصحف واحد مرتبة لسوره ، واقتصر من سائر
اللغات على لغة قريش محتجاً بأنه نزل بلغتهم » (١٤) •

(١٣) الاتقان في علوم القرآن — جلال الدين السيوطي ٥٧ ، ٥٨ •

١/٥٩ عالم الكتب — بيروت •

(١٤) المصدر نفسه ١/٦٠ •

أى أن جمع أبى بكر كان جمعا لمتفرق القرآن فى مصحف واحد •
 أما جمع عثمان فكان جمعا لأوجه القراءات المختلفة على قراءة واحدة •
 بلغة واحدة هى لغة قريش التى نزل بها القرآن الكريم • مع ترتيب
 السور القرآنية على الوضع الذى هى عليه الآن •

واختلف العلماء فى عدد المصاحف التى كتبها عثمان • فقليل : أربعة ،
 وقيل : خمسة ، وقيل : ستة • وقيل سبعة • قال ابن أبى داؤود :
 « وسمعت أبا حاتم السجستاني يقول : كتب — أى عثمان — سبعة
 مصاحف : فأرسل الى مكة والى الشام والى اليمن والى البحرين والى
 البصرة والى الكوفة وحبس بالمدينة واحدا » (١٥) •

ولم يكن اختلاف الناس فى القراءة القرآنية فى الأمصار الإسلامية
 قبل مصحف عثمان الا لأن القرآن الكريم لم يكن منقوطا ولا مضبوطة
 بالشكل فى أول أمره شأن الكتابات العربية آنذاك • ولهذا نهض
 أبو الأسود الدؤلى فى عهد معاوية بن أبى سفيان فضبط أواخر الكلمات
 القرآنية بجعل الفتحة نقطة من فوق الحرف والكسرة نقطة من تحت
 الحرف وانضمة نقطة بين يدي الحرف •

ولكن هذه الطريقة اذا كانت تصح فى عهد أبى الأسود حيث
 يستطيع قارئ القرآن أن يميز بين الكلمات المنصوبة والمجرورة
 والمرفوعة ، فانها لا تصح فى العصور اللاحقة لعصر أبى الأسود •
 لأن النقط التى وضعت علامة اعراب وضبط لأواخر الكلمات قد تلتبس
 بالنقط التى وضعت فيما بعد لتمييز حروف الكلمات • فالفتحة قد
 تلتبس بنقطة النون والخاء والذال والهمز والفاء ونقطتى التاء
 والقاف • والكسرة قد تلتبس بنقطة انباء والجيم ونقطتى الياء •
 والضممة قد تلتبس بنقطتى التاء المفتوحة والتاء والشين • • وهكذا •

ولذلك فإن مشكلة النطق والقراءة القرآنية الموحدة لم تحل حلاً جذرياً بالرغم من اجتماع الناس على مصحف عثمان إلا بعد وضع النقاط والتشكيل الأخير لكلمات القرآن الكريم . وقد قام بهذه المهمة أبو الأسود الدؤلى أيضاً . وقيل : الذى قام بهذه المهمة هو : نصر ابن عاصم الليثي المتوفى سنة ٩٠ هـ بأمر الحجاج بن يوسف الثقفى عامل عبد الملك بن مروان على العراق (١٦) . إلا أن هذه التعديلات التى جرت على حروف الكلمات القرآنية من حيث التثقيب والضبط بالشكل ، إنما جرت على مصحف عثمان دون تعديل فى ذات الحروف والطريقة التى كتبت بها كلمات القرآن الكريم . وهذا كله من باب الحفاظ على القرآن الكريم من اللحن أو التصحيف وللتعريف . وهو من غير شك محفوظ بحفظ الله له ، وسيظل كذلك إلى أن تقوم الساعة . وصدق الله العظيم حين يقول : « انا نحن نزلنا الذكر واننا له لحافظون » .

تدوين الحديث الشريف :

لم يختلف اثنان على كتابة القرآن الكريم وتدوينه فى عهد النبى — صلى الله عليه وسلم — وكنت فى عهدى أبى بكر وعثمان رضى الله عنهما . أما الحديث النبوى الشريف فقد كثرت الآراء حول تدوينه . فهناك من يعتقد أن الحديث النبوى لم يدون فى أول أمره ولكنه ظل فترة طويلة ينتقل رواية شفوية ، وآله « فى حياة النبى عليه السلام وفى حياة الخلفاء الراشدين وفترة من الزمن طويلة مدة الخلافة الأموية لم يكن الحديث مدوناً » (١٧) .

ويتحدث عمر الدقاق عن العلوم والمعارف فى عصرى صدر الإسلام وبنى أمية ثم يقول : « على أن أكثر هذه المعارف فى العصرين الراشدين ،

(١٦) مصادر التراث العربى ١٣ د/ عمر الدقاق .

(١٧) دراسات فى المكتبة العربية — مؤسسة أحمد خلف الله ص ٣٩ -

والأموي كانت تتناقل شفاهاً ، سواء في ذلك الحديث النبوي والتفسير والسيرة والمعازي والشعر والقصص والأمثال . ولم يقيض لحركة التدوين الحافلة أن تبدأ إلا بعد انقضاء القرن الأول للهجرة وانتهاء عهد الفتوح ، ثم قيام الدولة العباسية واستقرارها . وإذا استثنينا القرآن لم نقف على أثر مدين ذي بالك قبل هذه الحقبة من حياة العرب والمسلمين » (١٨) .

وبنى أصحاب هذا الاعتقاد رأيهم على ما ورد من أن النبي — صلى الله عليه وسلم — خشي أن يضاهي بكتاب الله غيره ، أو أن ينشغل الناس عن القرآن بسواه ، وأن أكثر الأعراب حينئذ لم يكونوا فقهاء في الدين ، ولا جالسوا العلماء العارفين ، فلم يؤمن أن يلحقوا ما يجدون من الصحف المكتوبة في غير القرآن بالقرآن ، ويعتقدوا أن ما اشتملت عليه كلام الرحمن (١٩) . فقال محدثا أصحابه : « لا تكبروا عنى شيئاً غير القرآن ومن كتب عنى شيئاً غير القرآن فيلمحه . ومن كذب على متعمداً فليتبوأ مقعده من النار يوم القيامة » .

ولكن اعتقادهم هذا فيه نظر . إذ أن الرواية الشفوية كان لها أكبر الأثر في تناقل الحديث الشريف وذيوعه بين المسلمين ، ومع هذا فلم يمتنع على الرواة أن يدونوا بغض ما سمعوه عن النبي — صلى الله عليه وسلم — وقد ثبت ذلك بالفعل . فقد روى الامام أحمد بن حنبل في مسنده : أن عبد الله بن عمرو بن العاص كان يكتب أحاديث الرسول — صلى الله عليه وسلم — بعلمه واذنه ، وأنه سأل رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : هل يكتب كل ما يسمع ؟ — أي منه صلى الله عليه وسلم .

(١٨) مصادر التراث العربي ١٥ ، ١٦ .

(١٩) راجع : تقييد العلم للخطيب البغدادي ص ٥٧ تحقيق يوسف

العشر — دمشق ١٩٤٩ م .

وسلم — فقال — صلى الله عليه وسلم — : « أكتب فوالذي نفسي بيده ما خرج مني الا حق » (٢٠) •

وهذا صحابي آخر هو عبد الله ابن عباس • قيل كان عنده حمل بعير كتب ، كتبها في الحديث وغيره (٢١) • وثبت أيضا أن أبا هريرة وأنس بن مالك وسعد بن عباد وغيرهم كثيرين كانوا يكتبون الحديث الشريف ويدونونه في عهد رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ومن ذلك أن ابنا عمرو بن أمية الضمري قال : تحدثت عند أبي هريرة بحديث ، فأنكر ، نقلت : اني قد سمعته منك • فقال : ان كنت سمعته مني فهو مكتوب عندي ، فأخذ بيدي الى بيته ، فأرانا كتبنا كثيرة من حديث رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فوجد ذلك الحديث (٢٢) • ثم جاء التابعون ودونوا الحديث أيضا • ومن هؤلاء : عروة بن الزبير وسعيد بن جبير والحسن البصري وهمام بن منبه • وغيرهم •

وهذا يدل على أن أحاديث الرسول — صلى الله عليه وسلم — قد دون منها الكثير في وقت مبكر قبل عصر التدوين العام بل في عهد الرسول — صلى الله عليه وسلم — وأن مرحلة التدوين العام قد بدأت حينما رأى القائمون على العلم خطر ترك الحديث والتراث الاسلامي بينون تدوين •

الكتب والعهود :

ولم يكن تدوين القرآن الكريم وبعض الأحاديث النبوية هما كل حجم الكتابة والتدوين في عهد النبي — صلى الله عليه وسلم — وخلفائه

(٢٠) مسند الامام أحمد • حديث رقم ٦٥١٠ ، ورقم ٦٨٠٢ •

(٢١) طبقات ابن سعد ٢١٦/٥ •

(٢٢) مقال للدكتور : محمد حميد الله في مجلة المجمع العلمي العربي

بدمشق الجزء الأول ص ١٠٥ سنة ١٩٥٣ م •

الراشدين بل كتبت في عهد النبي — صلى الله عليه وسلم — الكتب والمعاهدات والوثائق الكثيرة التي اقتضتها الحاجة في الدعوة الإسلامية . كالكتب التي أرسلها النبي — صلى الله عليه وسلم — الى الملوك والقيصرة والأكاسرة ، والى الأقبالي والعباهلة من أهل اليمن وحضرموت والى أساقفة الشام وأمرائها والى المقوقس صاحب مصر والنجاشي ملك الحبشة . وكذا الى القبائل المختلفة لعقد حلف وإبرام أمر يمس العقيدة ، أو لدعوتهم الى الاسلام واعطائهم الأمن والأمان ، وكتب الغنائم والاقطاعات . . وما الى ذلك من كتبه — صلى الله عليه وسلم — ومعاهداته الكثيرة .

ومن هذه الكتب التي أمر النبي — صلى الله عليه وسلم — بها : الكتاب الذي أرسله الى مسيلمة الكذاب ردا على كتابه . وقد كان مسيلمة بن حبيب كتب الى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — يقول له : « من مسيلمة رسول الله ، الى محمد رسول الله : سلام عليك ، أما بعد ، فأني قد أشركت في الأمر معك ، وان لنا نصف الأرض ، ولقريش نصف الأرض ، ولكن قريشا قوم يعتقدون » .

فقدم عليه — صلى الله عليه وسلم — رسولان لمسيلمة بهذا الكتاب . فقال لهما رسول الله صلى الله عليه وسلم : فما تقولان أنتما ؟ قالا : نقول كما قال — أي مسيلمة — فقال النبي — صلى الله عليه وسلم — : أما والله لولا أن الرسل لا تقتل لضربت أعناقكما .

ثم كتب الى مسيلمة : « بسم الله الرحمن الرحيم : من محمد رسول الله ، الى مسيلمة الكذاب : السلام على من اتبع الهدى . أما بعد ، فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين » (٢٣) .

ومن ذلك أيضا معاهدة الصلح التي كتبها على بن أبى طالب بأمر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بينه وبين سهيل بن عمرو مندوب قريش في صاَح الحديبية. وقد جاء في شروط الصلح : « هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو ، اصطلاحا على وضع الحرب عن الناس عشر سنين يأمن فيهن الناس ، ويكف بعضهم عن بعض ، على أنه من أتى محمدا من قريش بغير إذن وليه رده عليهم ، ومن جاء قريشا ممن مع محمد لم يردوه عليه ، وأن بينا عيبة مكفوفة (٢٤) ، وأنه لا اسلار ولا اغلال (٢٥) ، وأنه من أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل فيه ، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه » (٢٦) . وتوالت رسائل النبي - صلى الله عليه وسلم - ووثائقه ومعاهداته الكثيرة ، وهى فى أغلبها وان كانت تنجح الى ناحية سياسية الا أنها كتبت بأسلوب أدبى من طراز رفيع ، ويكفى أنها من بلاغة النبوة .

وفى عهد أبى بكر الصديق رضى الله تبارك وتعالى عنه اتسعت الكتابة وزادت الحاجة اليها أكثر مما كانت عليه فى عهد النبي - صلى الله عليه وسلم - اذ وجه كتبه وعهوده الى قادة جيوشه وإلى البلاد المفتوحة فى الأمور والمهام المختلفة . فأرسل كتابا الى القبائل المرتدة (٢٧) وعظمهم فيه قائلا لهم بعد أن حمد الله وأثنى على رسول الله صلى الله عليه وسلم : من كان انما يعبد محمدا فان محمدا قد مات ، ومن كان يعبد الله وحده لا شريك له ، فان الله له بالمرصاد ، حتى قيوم لا يموت ، ولا تأخذه سنة ولا نوم ، حافظ لأمره منتقم من عدوه .. » .

(٢٤) العيبة المكفوفة : الصدور المنطوية على ما فيها . والمراد : الذمة

لا تنكث .

(٢٥) الاسلار : السرقة الخفية . والاغلار : الخيانة .

(٢٦) سيرة ابن هشام ٣/٣١٧ .

(٢٧) الطبرى ٣/٢٠٥ . راجع كتب أبى بكر الصديق وعهوده فى

الطبرى ج ٣ ، فتوح الشام للواقدي ج ١ ، الكامل للمبرد ج ١ ، العقد

وظلك يلقى بمواعظه الى المرتدين الى أن خاطبهم قائلاً لهم : « واني بعثت اليكم فلانا في جيش من المهاجرين والأنصار واتباعين باحسان ، وأمرته ألا يقاتل أحدا ولا يقتله حتى يدعوه الى داعية الله ، فمن استجاب له وأقر وكف وعمل صالحا قبل منه وأعانه عليه ، ومن أبى أمرت أن يقاتله على ذلك ثم لا يبقى على أحد منهم قدر عليه ، وأن يحرقهم بالنار ويقتلهم كل قتاة ، وأن يسبى النساء والذراري ، ولا يقبل من أحد الا الاسلام ، فمن اتبعه فهو خير له ، ومن تركه فلن يعجز الله .. ، الى آخر الكتاب .

كما كتب عهدا الى قادة الجيوش المتجهة لقتال المرتدين . وكتبا الى عمال الردة وتوالت كتبه الكثيرة الى أهل مكة يستنفرهم للجهاد ، الى وجوه اليمن وأهلهم يستنفرهم أيضا للجهاد ، واسى عكرمه ابن أبي جهل يدعوه لمساندة حذيفه وعرفجه في قتال أهل عمان ومهرة . وإلى العلء الحضرمي يدعوه لقتال بنى شيبان بن ثعلبة ، وتوالت كتبه وعهوده الكثيرة التي كان آخرها عهده لعمر بن الخطاب عند موته ، وهو كتاب أملاه على عثمان ابن عفان في مرض موته يبايع فيه المسلمين باستخلاف عمر بن الخطاب عليهم قائلًا فيه : « بسم الله الرحمن الرحيم . هذا مايعهد به أبو بكر بن أبي تحافة خليفة محمد رسول الله — صلى الله عليه وسلم — عند آخر عهده بالدنيا نازحا عنها . وأول عهده بالآخرة داخلا فيها ، في الحال التي يؤمن فيها الكافر ، ويتقى فيها الفاجر ، ويصدق الكاذب : اني استخافت عليكم عمر بن الخطاب فانه بر وعدل ، فذلك علمي به ورأيي فيه ، وان جار وبذل فلا علم لي بالغيب والخير أردت ، ولكل امرئ ما اكتسب ، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون » .

الفريد ج ٢ ، اعجاز القرآن للمباقلاني ص : ٤٣ ، الامامة والسياسة لابن قتيبة ١١٩/١ ، اخراج لأبي يوسف يعقوب بن ابراهيم ص ١٦٠ ، أدب الخلفاء الراشدين لجابر قميحة من ص : ٥١ الى ص ٦٦ .

وفي عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه اتسعت رقعة الكتابة أكثر مما كانت عليه في عهدي رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأبو بكر الصديق رضى الله عنه ، إذ أنها أصبحت جزءا أساسيا من أعمال الدولة الإسلامية في عهده ، وتضمنت الكتابة كل تعاليم الدولة ، وكل ما رسمته سياسته للمسلمين وأهل الذمة من العلاقات السياسية والاقتصادية في الخراج وقسمة الغنائم ، وكل ما يتصل بالأنظمة في الشعوب والبلاد المفتوحة .

وأكثر كتبه وعهوده كانت لقادة جيوشه وعماله على البلاد المفتوحة . ومن ذلك (٢٨) : وصيته لقادة جيوشه عند عقد الاموية لهم . حيث يقول فيها . « بسم الله ، وعائى عون الله ، وامضوا بتأييد الله بالنصر . » وما النصر الا من عند الله « ولزوم الصدق والصبر ، فقاتلوا في سبيل الله من كفر بالله ، « ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين » ولا تجبنوا عند اللقاء ، ولا تمثلوا عند القدرة ، ولا تسرفوا عند الظهور ، ولا تقتلوا حرما ولا امرأة ولا وليدا ، وتوقوا قتلهم اذا التقى الزحفان وعند حمة النهضان ، وفي بين الغارات ، ولا تغلوا عند الغنائم ، ونزوها الجهاد عن عرض الدنيا ، وأبشروا بالرباح بالمبيع الذى بايعتم به ، « وذلك هو الفوز العظيم » (٣٠) .

ومن ذلك أيضا كتابه الى ملك الروم حيث قال فيه : « انه بلغنى ان حيا من احياء العرب ترك دارنا وأتى دارك ، فوالله لتخرجنه ، لو لنينفن (٢٩) الى النصارى ، ثم لنخرجنهم اليك » (٣٠) .

(٢٨) سيرة عمر بن الخطاب للجوزى ص ٦٥ .

(٢٩) المناينة : نقض العهد .

(٣٠) تاريخ الطبرى ج ٤ .

وبها كتابه الى عمرو بن العاص وهو في طريقه الى مصر قال فيه : « من عمر بن الخطاب الى عمرو بن العاص : أما بعد : فانك سرت الى مصر ومن معك ، وبها جموع الروم ، وانما معك نفر يسير ، ولعمري لو نكل بك ما سرت بهم ، فان ام تكن بلغت مصر فارجع » . وتوغل عمرو في مصر وارسل انى عمر يستمده فأمدته بأربعة آلاف وكتب اليه : « انى قد أمددتك بأربعة آلاف رجل ، منهم رجال مقام الألف : الزبير بن العوام ، والمقداد بن الأسود وعبادة بن الصامت ، ومسلمة بن مخلد ، واطم أن معك اثني عشر ألفا ، ولا يغيب اثنا عشر ألفا من قلة » (٣١) .

وفي عهد عثمان بن عفان رضى الله عنه ، أرسلت الكتب والعهود الى قادة الجيوش وعمال البلاد المفتوحة . وفي المهام الكثيرة وشئون البلاد .

ومن ذلك كتاب عثمان الى الوليد بن عقبة والى الكوفة من قبله ، يطلب منه أن يمد معاوية ابن أبى سفيان في حرب الروم . بعدد من جند المسلمين يتراوح بين ثمانية آلاف وعشرة آلاف ، يقول فيه عثمان : « الى الوليد بن عقبة . أما بعد : فان معاوية بن أبى سفيان كتب الي يخبرني أن الروم قد أجلبت (أى هجمت) على المسلمين

(٣٢) خطط المقرئى ٢/٢٨٨ ، ٢٨٩ ، راجع كتب عمر بن الخطاب فى : الفبائك الكبرى لابن سعد ج ٣ ، خطط المقرئى ج ٧ ، ٢ ، شيرة عمر بن الخطاب لابن الجوزى ، تاريخ الطبرى ج ٣ ، ٤ ، العقد الفريد لابن عبد ربه ج ٨ ، نهاية الأرب للنوهدى ج ٦ ، الخراج لأبى يوسف ص ٦٨ ، البيان والتبيين للجاحظ ج ٢ ، فتح الشام للواقدي ج ١ ، جمهرة رسائل العرب ، أحمد ذكى صفوت ص ٨٥٧ ، أدب الخلفاء الراشدين ، حياهم قميحة من ص : ١١٠ الى ص : ١٤٨ .

بجموع عظيمة ، وقد رأيت أن يمدّهم اخوانهم من أهل الكوفة ، فإذا أتاك كتابي هذا فابعث رجلا ممن ترضى نجاته وبأسه وشجاعته وإسلامه في ثمانية آلاف ، أو تسعة آلاف ، أو عشرة آلاف اليهم ، من المكان الذى يأتيك فيه رسولى والسلام » (٣٢) .

وتوالت كتبه وعهوده الكثيرة ، وكان آخرها الكتاب الذى أراداه مع نافع بن طريف الى أهل مكة في موسم الحج سنة ٥٣٥ يستجد فيه بالحجيج طالبا منهم فيه أن يخلصوه من ظلم الرجال الذين حبسوه في بيته ثم قتلوه بعد ذلك . يقول فيه : « بسم الله الرحمن الرحيم . من عبد الله عثمان أمير المؤمنين الى من حضر الحج من المسلمين .

أما بعد : فانى كتبت اليكم كتابي هذا ، وأنا محصور ، أشرب من بئر القصر ، — أى الحبس ولا أكل من الطعام ما يكتفينى ، خيفة أن تنفذ ذخيرتى فأموت جوعا أما ومن معى ، ولا أدعى الى توبة أقبلها ، ولا تسمع منى حجة أقولها ، فأنتشد الله رجلا من المسلمين بلغه كتابي الا قدم على ، فأخذ الحق فى ، ومنعنى من الظلم والباطل (٣٣) .

وكتب عثمان هذه وإن كانت كثيرة ومتشعبة ، إلا أنها لم ترد على ما كانت عليه فى عهد عمر رضى الله عنه .

وفى عهد على بن أبى طالب كرم الله وجهه كثرت الكتب والمعمود وتنوعت فى معانيها وأهدافها ، حيث كثرت الأحزاب واتسعت ميادين الحروب وكثرت جبهات القتال فى عهده وهذا ما جعل كتبه تنجح فى

(٣٢) الطبرى ٤/ ٢٤٧ .

(٣٣) الامامة والسياسة ٣٦/١ راجع كتب عثمان بن عفان فى :

أشهر مشاهير الاسلام ج ٤ : رفيق العظم ، والطبرى ج ٤ ، للعقد الفريد ج ٢ ، الكامل للمبرد ج ٣ ، الخراج لأبى يوسف معقوب بن ابراهيم .

أكثرها إلى نواح سياسية ، ومن هذه الكتب الكثيرة كتابه إلى أهل الكوفة يحدثهم فيه عن عثمان بن عفان وهو وقف الناس منه ، وموقفه هو منه ، وهبايعة الناس له طائعين مخيرين . ثم يدعوهم في نهايه الكتاب إلى جهاد العدو معه . يقول على في كتابه هذا : « من عبد الله على أمير المؤمنين إلى أهل الكوفة ، جبهة الأنصار وسنام العرب أما بعد : فاني أخبركم عن أمر عثمان ، حتى يكون سمعه كعيانه . »

ان الناس طعنوا عليه ، فكنت رجلا من المهاجرين أكثر استعنا به — أى استرضاه — وأقل عقابه ، وكان طاحه والزبير آهون سيرهما فيه الوجيف (٣٤) . وأرغق حدائهما العنيف ، وكان من عائشة فيه قلته غضب ، فأتىح له قوم فقتلوه ، وباعينى الناس غير مستكرهين ولا مجبرين ، بل طائعين مخيرين . واعلموا أن دار الهجرة قد قلعت بأهلها ، وقلعوا بها ، وجائت جيش المرج ، وقامت الفتنة على القطب فأسرعوا إلى أميركم ، وبادروا جهاد عدوكم ان شاء الله » (٣٥) .

وأرسل كتابا إلى معاوية بن أبى سفيان يحدثه فيه عن بيعته وبراعته من دم عثمان فقال فيه : « بايعنى القوم الذين بايعوا أبى بكر وعمر وعثمان ، على ما بايعوهم عليه فلم يكن للشاهد أن يختار ولا المغائب أن يرد ، وإنما الشورى للمهاجرين والأنصار ، فان اجتمعوا على رجل وسموه أداما كن ذلك لله رضى ، فان خرج من أمرهم خارج بطعن أو بدعة ردوه إلى ما خرج منه ، فان أبى قاتلوه على إلباءه لغير سبيل المؤمنين وولاه الله ما تولاها . »

(٣٤) الوجيف : ضرب من السير السريع — دار الهجرة : المدينة — قيام الفتنة على القطب : كناية عن شدة الفتنة وتسعمرها .
(٣٥) نهج البلاغة للإمام على بن أبى طالب ٢/٣ ، ٧ شرح الشيخ محمد عبده — بيروت .

ولعمري يا معاوية لننظر بعمقك خون هواك لتجنى أبرار
الناس من دم عثمان ولتغنم أنى كنت في عزلة عنه ، إلا أن نتجنى
فتجن ما بدالك والسلام» (٣٦) •

وهكذا اتسع ميدان الكتابة وتتنوع موضوعاتها وكثرت الحاجة
إليها في عهد النبي - صلى الله عليه وسلم - وخلفائه الراشدين ،
فكانت هناك العشرات من الكتب والعهود والوصايا للنبي - صلى الله
عليه وسلم - ولخلفائه رضوان الله تعالى عليهم أجمعين • وذلك لأن
الكتابة قد أسهمت أسهاما كبيرا في إرساء قواعد الدولة الإسلامية ،
وحملت مجموع انظم والتعاليم الجديدة التي تدعوا إليها ، ولم يكن
للعرب بها عهد من قبل •

ولا ننكون مغالين إذا قلنا : إن الكتابة قد « وسعت كل الحاجات
السياسية التي جدت ، وكل ما أعطى لمسلمين المحاربين والشعوب
المفتوحة من حقوق » (٣٧) •

وهذا كله يدل على وجود التدوين وكثرته ورقية في عصر صدر
الاسلام •

ولذا غان ما قاله جرجي زيدان في «ذا الشأن مرفوض ، أد أنه
يرى أن تدوين العنوم في كتب في صدر الاسلام كن ممنوعا لأسباب
ذكرها هو دون غيره ، ولا أراها معقولة بحال من الأحوال • وهي أن
الخلفاء الراشدين كانوا يخافون الحضارة على العرب حتى لا تذهب
بنشاطهم وبدائرتهم ، ولقلة الائتلاف في التفسير والحديث بينهم ،
وحتى يبقى الناس في حاجة اليهم رأسا • وذكر أن ابن عباس نهى عن

(٣٦) المرجع السابق •

(٣٧) العصر الاسلامي ص ١٣٤ - شوقي ضيف ، راجع كتب

الاعظم على بن أبي طالب في نهج البلاغة ج ٣ •

الكتابة وتدوين العلم ، على الرغم من أن الباحثين قد أثبتوا تدوين ابن عباس للعلم وتصنيف للكتب ، وأنه كان عنده حمل بعير كتباً . وذكر أيضاً : أن سعيد بن جبير المتوفى سنة ٩٤ أو ٩٥ هـ للهجرة الشريفة سئل من رجل معاصر له أن يفسر له القرآن ، فغضب ، وقال : « لأن يسقط شقي أحب إلي من ذلك » ولا ندرى من أين لجرجي زيدان بهذا الكلام المنقول عن ابن جبير وبحق أو بباطل ؟

والمعروف أن عروة بن الزبير بن العوام وهو تابعي وابن صحابي جليل كان يفسر القرآن ويحدث القواريع ولا أحد ينكر عليه ذلك ، وفي سيرة ابن هشام ثملاذج من تفسيره للقرآن الكريم . وكتابه (معازي رسول الله صلى الله عليه وسلم مشهور ومعروف في المكتبات العربية . وغيره من معاصريه ومن كانوا قبله فسروا القرآن وحدثوا الحديث وعنوا بكتب النبي - صلى الله عليه وسلم - وخلفائه عناية شديدة . فلا أدري لماذا ينفي جرجي زيدان تدوين العلم في صدر الإسلام . بل في القرن الأول الهجري كاه ؟ ومن أين له بالأسباب التي ذكرها ، إلا أن تكون وجهة نظر مرفوضة ؟

يقول جرجي زيدان في ذلك : « إن الخلفاء الراشدين كانوا يخافون الحضارة على العرب لئلا تذهب بنشاطهم وبدلوهم ، ولذلك منعهم من تدوين الكتب لأن علومهم في أوائل الإسلام كانت قاصرة على القرآن والتفسير ورواية الحديث ، ونظرا لقلّة الاختلاف ، ولسهولة المراجعة والاستفتاء من ثقات أصحابه والتابعين ولقرب عهدهم من صاحب الشريعة كانوا في غنى عن تدوين تلك العلوم ، ويستدل مما روى عن ابن سعيد الخدري أنه استأذن النبي - صلى الله عليه وسلم - في كتابة العلم فلم يأذن له . وروى عن ابن عباس أنه نهى عن الكتابة وقال : « إنما نحن من كل قبيلة بالكتابة » وجاء رجل إلى ابن عباس فقال : « ساني بكتابك أريد أن أعرضه عليك »

فلما عرضه عليه أخذه منه ومحا بالماء ، وقيل له : « لماذا فعلت ذلك ؟ فقال : لأنهم إذا كتبوا غمداً على الكتابة وتركوا الحفظ ، فيعرض للكتابة عارض فينثرت علمهم ، وأن الكتاب يزداد فيه وينقص ويغير ، والمحفوظ لا يمكن تغييره »

ويعلق جرجي زيدان على هذا الكلام بقوله : « وكان هذا الاعتقاد
 فاشيا في الصحابة والتابعين ، وتمسك به جماعة من كبارهم ، وكانوا
 اذا سئلوا بتدوين علمهم أبوا ، واستتفوا ، ولعلمهم كانوا يفعلون ذلك
 ليبقى الناس في حاجة اليهم رأسا » . سأل رجل سعيد بن جبير وهو
 من أعلام التابعين أن يكتب له تفسير القرن فغضب وقال : « لأن
 يسقط شقي أحب الي من ذلك » (٣٨) .

وهذا الكلام لا يتفق مع الأدلة الكثيرة والقوية التي تثبت وجود
الكتابة والتدوين في عصر صدر الإسلام ، وأن الحاجة كانت ملتهمة
للمسالك ، وللمعلماء ، وللعامة ، ولجميع بني زمانهم ،
وإنما نقول إنهم انبثقوا من دائرة الكتابة والتدوين أكثر وأكثر ،
واشتمل كثير من الناس بجمع الأخبار والآثار الأدبية والعلمية وتصنيفها
وترتيبها واستخراج الأحكام والشواهد منها ، والاستدلال على صحة
قولهم بأقوال العرب في شعرهم ونثرهم ، ولذلك دون من آثار العرب
الجاهليين والإسلاميين في شرح الحديث والتفسير والتاريخ وذكر
الأنساب آثار كثيرة ، بعضها من المدون في الجاهلية والإسلام وبعضها
كان مروياً مشافهة ، ولكن كتب له التدوين بذكره في الكتب التي كتبت في
العصر الإسلامي وما تلاه من عصور العلم والأدب ، وكل هذه أدلة
قوية على وجود الكتابة والتدوين في العصر الجاهلي ، وفي القرن
الأول الهجري الذي نفى عنه جرجي زيدان ذلك .

(٣٨) تاريخ التمدن الاسلامى ج ٣ مجلد ٢ ص : ٥٥ ، ٥٦ . دار
الكتاب - بيروت .

الفصل الثالث

الكتابة والتدوين في العصر الأموي

لما كان العصر الأموي واتسعت موجة الكتابة والتدوين فيه كثيرا ، دعت العرب والمسلمين دواع كثيرة لتدوين علومهم العربية والدينية ، ولاضافة ما وصلهم من علوم الأعاجم ومعارفهم المختلفة - ومن هذه الدواعي :

وجود عناصر أعجمية كثيرة تعرف القراءة والكتابة ونظام التدوين ، فهي تقوم بمعبء عظيم ، وعليها يعتمد التدوين اعتمادا كبيرا .

ومنها أن الحرب والجهاد قد أهلك أعدادا من العلماء والشعراء الذين أخذ العلم والشعر عنهم مشافهة ، وكثيرا من روايتهم ، ولا بد من تقييد العلم وتدوينه حتى لا يضيع بموت الحفظه والرواة .

وعنها : حاجتهم الى المعارف ، الوافدة التي لا يستفاد منها الا بتدوينها ومراجعتها والاضافة اليها . والاستفادة منها كلما تتطلب الأمر .

ومنها : حاجة الملك والسياسة الى مراجعة العلوم المختلفة التي يستفيد منها الحكام في نظام حكمهم ، وصولا بدولهم الى مراقي الحضارة والثقافة .

وقد عنى بذلك معاوية بن أبي سفيان مؤسس دولة بني أمية عناية فائقة . اذا أنه استكتب رجلا من أهل اليمن هو عبيد بن شريح الجرمي ببعض أخبار الأوائل فكتبها له . وعنى غيره من حكام الدولة الأموية

بالتاريخ كذلك خلفا لمعاوية ، واستعثوا على كتابته . فكتب وهب
ابن منبه : المبتدأ والخبر ، وهو كتاب في التلخيص ، وكتب كذلك .
التيحجان في ملوك حمير ، وقصص الأنبياء ، وكتب الزهري وأبان
ابن عثمان بن عفان وعروة بن الزبير وغيرهم كتباً كثيرة في المغازي
والسير ، وكان أولها في سيرة رسول الله - صلى الله عليه وسلم (١) .

هذا وقد توفّر على الكتابة والتدوين والترجمة والتأليف جمع غفير
من علماء العصر الأموي وأدبائه .

وكان أهم ما دون في هذا العصر من العلوم والمعارف :

التفسير :

على الرغم من أن العرب في الجاهلية والاسلام قد اشتبهوا
بالبصاحة والبلاغة والبيان ، إلا أن المسلمين منهم حين نزل القرآن
الكريم وقرأه عليهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - احتج
بعضهم الى السؤال عن معنى كلمة أو تفسير آية ، وكان النبي - صلى
الله عليه وسلم - يجيبهم ويوضح لهم ما غمض عليهم . وربما كتب
بعضهم بعض ما سمع من النبي - صلى الله عليه وسلم - في هذا
الشأن .

ثم كثّر السؤال بعد النبي - صلى الله عليه وسلم - وكثرت
الاجابات عن معنى الكلمات وتفسير الآيات القرآنية وأسباب النزول .
وكل ذلك قد دون ، فكان لابن عباس كتب في تفسير القرآن الكريم
وتوضيح غريبه وأحكامه وأسباب نزوله (٢) . وقد مرّ بنا أن كتب

(١) راجع : كتابنا دراسات في الادب العربي في العصر الأموي

ص ٣١ وما بعدها .

(٢) راجع الفهرست لابن النديم ص ٥٠ .

ابن عباس قد بلغت حمل بعير ، وأنها لم تكن جميعها في الحديث بل
 أن جزءا كبيرا منها كان في تفسير القرآن الكريم وبيان أحكامه .
 كذلك اهتم بتفسير القرآن كثير من أصحاب النبي - صلى الله عليه
 وسلم - وتابعيه ، وكان من أوائل التابعين : عروة بن الزبير وسعيد
 بن جبور والحسن البصري وقتادة وغيرهم ممن عاصر بعضهم أو جاء
 بعدهم .

وقد جاء في سيرة ابن هشام أن عروة بن الزبير قد فسر بعض آيات
 القرآن الكريم وتحدث عن أسباب نزولها . ومن ذلك ما رواه ابن هشام
 عن ابن اسحاق قال : « وهاجرت الى رسول الله - صلى الله عليه
 وسلم - أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط في تلك المدة (٢) ، فخرج
 أخوها عمارة والوليد ابنا عقبة حتى قدما على رسول الله - صلى الله
 عليه وسلم - يسألانه أن يردها عليهما بالعهد الذي بينه وبين قريش
 في الحديبية ، فلم يفعل ، أبى الله ذلك .

قال ابن اسحاق : فحدثني الزهري عن عروة بن الزبير ، قال :
 دخلت عليه وهو يكتب كتابا إلى ابن أبي هزيمة صاحب الوليد بن
 عبد المالك ، وكتب اليه يسأله عن قول الله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا
 إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتنوهن ، الله أعلم بايمانهن ، فإن
 علمتوهن مؤمنات فلا ترجعهن الى الكفار ، لا هن حل لهم ، ولا هم
 يحلون لهن ، وآتوهن ما أنفقوا ولا جناح عليكم أن تنكحوهن إذا
 أتيتموهن أجورهن ، ولا تفسكوا بعصم الكوافر » (٣) .

وقد قاله رأي ابن اسحاق ، فمكتوب اليه عروة بن الزبير فإن رسول الله
 - صلى الله عليه وسلم - كان صالح قريشا يوم الحديبية على أن يردها

(*) يقصد بعد صلح الحديبية .

(٢) سورة الممتحنة الآية ١٠٤ و ١٠٥ .

(٣) سورة الممتحنة الآية ١٠٤ و ١٠٥ .

عليهم من جاء يغير أذن وليه ، فلما هاجرت النساء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم - وإلى الإسلام ، فعرفوا أنهم إنما جئن رغبة في الإسلام ، وأمر يرد صدقاتهن إليهم أن احتسبن عنهم ، أن هم ردوا على المسلمين صداق من حبسوا عنهم من نسائهم ، ذلكم حكم الله يحكم بينهم ، والله عليهم حكيم . فأمر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - النساء ورد الرجال ، وسأل الذي أمره الله به أن يسأل عن صدقات النساء من حبسوا منهن ، وأن يردوا عليهم مثل الذي يردون عليهم ، أن هم فعلوا ، وأولا الذي حكم الله به من هذا الحكم لرد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - النساء كما رد الرجال ، ولولا الهدنة والعهد الذي كان بينه وبين قريش يوم الحديبية لأمر الله النساء ولم يرد لهن صداقا ، وكذلك كان يصنع بمن جاءه من المسلمات قبل العهد » (٤) .

وروى أيضا : أن سعيد بن جبير أرسل إليه عبد الملك بن مروان أن يكتب إليه تفسير القرآن ، فكتب إليه سعيد بن جبير بتفسيره . فحفظه عبد الملك عنده في الديوان وروى أن عطاء بن دينار قد أخذ هذا التفسير من ديوان عبد الملك ورواه عن ابن جبير وإن كان لم يسمعه منه (٥) . وكثير من التابعين قد غسروا القرآن ورواوا بعضهم عن بعض ، مراعيين في تفسيرهم المأثور عن النبي - صلى الله عليه وسلم - وأصحابه . حتى انتهى هذا التفسير إلى تفسير ابن جرير الطبري (٢٢٤ - ٣١٠ هـ) المعروف بـ (جامع البجليين في تفسير القرآن) وهو أبرز نموذج لما عرف في مصطلح المفسرين بالتفسير بالمأثور .

(٤) سيرة ابن هشام ج ٣ ص ٢٢٧ الطبعة الثانية - الناشر مصطفى

الداخلي الحلبي

(٥) مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية - د. ناصر الدين

الأسد ص ٩٤٨ ط ١ - دار المعارف المصرية

المغازى والسير :

ولم يكن تفسير القرآن الكريم مجرد توضيح المعانى والالفاظ واستخراج الأحكام الفقهية والقضايا البلاغية واللغوية ، ولكن اشتهر من بين من عنوا بالقرآن وتفسيره جمع من المؤرخين كان لهم فضل اهتمام بالسير والمغازى ، وكذا بقصص القرآن ، لما فيها من المواعظ والعبر ، وقد وصف الرسول - صلى الله عليه وسلم - القرآن الكريم بقوله : « كتاب الله ، فيه خبر ما قبلكم ونبا ما بعدكم ... » . أى أن القرآن الكريم يشتمل على أخبار البشر منذ آدم عليه السلام وقصص الأنبياء قبل محمد - صلى الله عليه وسلم - ، ثم على أخبار محمد - صلى الله عليه وسلم - وسيرته ومغازيه . وهذه الأخبار والقصص وكذا المغازى منها ما هو مفصل ، فى القرآن ، ومنها ما هو مجمل . وتفسير هذا كله تناوله المعنيون بالتاريخ من أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - والتابعين .

وكان من أشهر من دونوا القصص والمغازى فى كتب : عروة بن الزبير المتوفى سنة ٦٤ هـ . وله فى ذلك كتاب (مغزى رسول الله صلى الله عليه وسلم) برواية أبى الأسود عنه (٦) وهو يشتمل على سيرة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - منذ تهينته لاستقبال الوحي ، الى مرض موته ووفاته - صلى الله عليه وسلم - وعلى ستة كتب من كتبه - صلى الله عليه وسلم - الى ذرعة أهل نجران وذرعة أهل ثقيف وأهل هجر وأهل هيلة وأهل خزاعة ، وذرعة بن ذى يزن .

كما اشتمل الكتاب على ملحقات ثلاثة كتبها عروة :

(٦) راجع : مغازى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لعروة بن الزبير برواية أبى الأسود عنه . تحقيق دكتور : محمد مصطفى الأعظمي نشر مكتب التربية العربى لدول الخليج - الرياض ١٩٨١م .

الأول : يتضمن كتاباته الى عبد الملك بن مروان وآخرين ، عن
بيعة العقبة وهجرة الرسول - صلى الله عليه وسلم - وعن ذكرى
وقعة بدر ، وعن هوازن وغزوة الطائف .

والثاني : يتضمن أسماء من حضروا بدرا من أصحاب رسول الله
- صلى الله عليه وسلم - وتسجية من استشهد منهم .

والثالث : يتضمن سير أعلام النبلاء .

ويعتبر عروة بكتابه هذا وغيره أول من صنف في المغازي
والسير (٧) . وقد اهتم بالسير والمغازي أيضا : أبان بن عثمان
ابن عفان المتوفى سنة ١٠٥ هـ . وقد أخذ عنه وروى له : المغيرة بن
عبد الرحمن ، ووهب بن منبه وغيرهما .

وكتب في السير والمغازي أيضا : ابن شهاب الزهر المتوفى
سنة ١٥١ هـ . وأخذها عنه بعد تهذيب وتنقيح انواقدي المتوفى ٢٠٧ هـ .
وابن هشام المتوفى سنة ٢١٨ هـ وغيرهم كثيرون .

الحديث :

وقد اشتغل بروايته وتدوينه في صدر الاسلام عبد الله بن عمرو
ابن العاص ، وأبو هريرة وابن عباس ... وغيرهم ممن غنوا بالحديث
وتدوينه . ولكن زاد هذا الازدحام واتسعت دائرته في العصر الأموي ،
فاشتغل به عاصم بن سليمان المتوفى سنة ١٤١ هـ ، وخالد الحذاء
المتوفى سنة ١٤١ هـ ، وشعبة بن الحجاج المتوفى سنة ١٦١ هـ ، ومحمد
العامري المتوفى سنة ١٢٠ هـ وغيرهم .

(٧) راجع : مصادر الشعر الجاهلي ص ١٤٩ د . ناصر الدين الأسد
طبعة ٦ سنة ١٩٨٢ م .

الفحو :

وكان أمر تدوينه ضروراً ملحاً ، وذلك لاختلاط العرب بالعجم أثناء الفتح الإسلامية وبعدها ، إذ كثرت اللحن واللفظ في الألفاظ العربية وتراكيبها . وكان لابد من تدوين النحو وتقنيته حفظاً له من الضياع ، ومجهود أبي الأسود اندؤلى واضح ومعروف في هذا الأمر .

الشعر والأدب :

وقد اهتم بهما كثير من شعراء وأدباء ونقاد العصرين الأموي والعباسي الأول . وكان أكثرهم اهتمهما بجمع الشعر وتدوينه وروايته : حماد الراوية المتوفى سنة ١٥٦ هـ . والمفضل الضبي المتوفى سنة ١٧٨ هـ ، والأصمعي المتوفى سنة ٢١٦ هـ ، وأبنا تمام — صاحب ديوان الحماسة — المتوفى ٢٣١ هـ وغيرهم كثيرون .

كما اهتم بالأدب وتدوينه والتأليف فيه رجال منهم : أبو مخنف ابن يحيى الأزدي المتوفى سنة ١٧٥ هـ ، وعبد الحميد بن يحيى الكاتب المتوفى سنة ١٣٢ هـ .

الفقه الإسلامي :

وقد اشتغل به جمع غفير من الصحابة والتابعين في العصرين الأموي والعباسي ، ويقال : أن أول ما كتب في الفقه الإسلامي : هو كتاب أملاه زيد بن علي بن الحسين على تلاميذه في هذا المجال .

أصول الدين :

ويقصد بها المسائل المتعلقة بالذات الالهية والعلاقة بين الايمان والاسلام ، والمسائل المتعلقة بالرسول وصفاتهم ودعوتهم • وكثير من المسائل الدينية والدنيوية • وقد اشتغل بها كثير من العلماء من أمثال :
واصل بن عطاء ، ووهب بن منبه وغيرهما •

ولم تكن هذه هي كل العلوم التي اهتموا بتدوينها والكتابة فيها والاشتغال بها ، ولكنهم اهتموا كذلك بالموسيقى والألحان — وبخاصة في مكة والمدينة — وبالطب والكيمياء ، وكان أكثرهم اهتماما بالكيمياء :
خالد بن يزيد المتوفى سنة ٥٨٥ •

الى غير ذلك من اهتمامات العلماء والأدباء والنقاد والمؤرخين بجمع شتات العلوم وتدوينها والانتفاع بها • وظل الحال هكذا الى أن كان التدوين العام لجميع العلوم والمعارف المعروفة لدى العرب والمسلمين في نهاية القرن الثاني وأوائل القرن الثالث الهجري • وقد دعت الحاجة الى ذلك •

ولاشك أن هذا كله يدل دلالة قاطعة على أن التدوين لم تكن بدايته الحقيقية في نهاية القرن الثاني وبداية القرن الثالث الهجريين ، كما ذكر غير واحد من الباحثين ، ولكنه بدأ منذ وقت مبكر في العصر الجاهلي ثم في عهد النبي — صلى الله عليه وسلم — وبعده وكلما تقدم الزمن كلما كبر حجمه وزادت الحاجة اليه • وما ذكره الباحثون من أن الرواية الشفهية قد سيطرت على الحياة العلمية قرناً أو أكثر من الزمان دون تدوين فهذا غير صحيح ؛ نظراً للدلائل التي وقفنا عليها •

الفصل الرابع

دواعى التدوين العام ومنهجه

هناك أمران هامان لم يساعدا على وجود التدوين العام لكل آثار العرب الا قليلا منه ابان العصور الأولى : الجاهلى وصدر الاسلام والأموى وحتى أوائل الدولة العباسية الأولى ، بالرغم من اتساع موجة الكتابة والتدوين فى صدر الاسلام عن العصر الجاهلى ، وفى العصر الأموى عن عصر صدر الاسلام ... وهكذا . هما :

١ - غلبة العامية على العرب فى الجاهلية وجزء من الدولة الاسلامية ، واعتمادهم على الرواية الشفهية كثيرا فى نقل علومهم ومعارفهم ، وعلى الذاكرة فى اختزان العلوم وحفظها .

٢ - نهى النبى - صلى الله عليه وسلم - عن الكتابة والتدوين لشيء غير القرآن الكريم ، خوفا من اختلاطه بآثار العرب فى أفهام الناشئة وغير العرب من الداخلين فى الاسلام . ولكن ما أن تقدم الزمن واتسعت دائرة الكتابة ومات كثير من حفظة الأدب والعلم وخيف من ضياع ما بقى من معارفهم بموت الحفاظ والرواة ، بالاضافة الى تفرق كثير منهم فى البلاد والأمصار الاسلامية ، وحدثت الفتن واختلاف الآراء . كل ذلك وغيره قد دعى الى ضرورة التدوين وجمع شتات العلوم والمعارف فى كتب مدونة . وكان ذلك ابتداء من منتصف القرن الثانى الهجرى .

يقول جرجس زيدان : « فلما انتشر الاسلام ، واتسعت الأمصار ، وتفرقت الصحابة فى الأمصار ، وحدثت الفتن واختلقت الآراء وكثرت الفتاوى وانرجوع الى الكبراء ، اضطروا الى تدوين الحديث والفقه

وعلم القرآن ، واشتغلوا في النظر والاستدلال والاجتهاد والاستنباط وتمهيد القواعد والأصول وترتيب الأبواب والفصول ، قرأوا ذلك مستحبا ، فعمدوا الى التدوين ورجعوا الى حديث رواه أنس بن مالك وهو قوله : « قيدوا العلم بالكتابة » ، وقوله : « العلم صيد والكتابة قيده » (١) .

الا أن عملية التدوين كانت مصحوبة بعصبية جاهلية ، مردها النظر في آثار القبائل وتدوين نتائجها والتباهي بمفاخرها وسؤدها . ولذلك تأججت نيران العصبية في آونة التدوين . كل قبيلة تدون آثار علمائها وأدبائها من غير تحفظ ولا روية . وربما يجد المدونون شعرا ونثرا مجهول النسب هو في خصائصه وسماته الفنية أقرب الى خصائص شعر قبائلها ونثرها ، فيضيفونه الى سجل قبائلهم ، وربما دونه غيرهم على أنه لهم . ولذلك وجد شعر ونثر منسوب الى أكثر من شاعر وأكثر من قبيلة . ومرد ذلك الى التحيز والعصبية التي آمنتها الاسلام وأحيائها بنو أمية ، فقد دأب الأمويون على احياء العصبية القديمة الهاء للناس عن التفكير في الحكم والسياسة وعن أحق الناس بالخلافة .

ولعن فكرة انتحال الشعر والأدب نشأت من ذلك التحيز وتلك العصبية في التنافس على نسبة الشعر الجاهلي لأكثر من شاعر وأكثر من قبيلة .

ولذلك نشأت الحاجة من جديد الى الاهتمام بالأحساب والأنساب وتتبع الأصول والفروع وجمع ما قيل من الشعر في اعلاء شأن بعض القبائل والزراية بغيرها ، وهذا كان له دوره وأهميته في التدوين . وكان

(١) تاريخ التمدن الاسلامي ج ٣ مجلد ٢ ص ٥٦ ، ٥٧ .

من أشهر من اهتموا بالأحساب والأنساب دغفل وصحار العبدى
النسابيان •

وساعد على هذا الجمع والتدوين أيضا : ما حدث من خلاف شديد
بين على ومعاوية حول خلافة المسلمين وقيادتهم • وانقسم الناس على
أثر هذا الخلاف الى شيعة وأحزاب ، كل حزب يتحدث عن أفضليته ،
مستمدا ذاك من انجازات حاضرة وأمجاد ماضية ، ودفعهم ذلك الى
ما قيل في أصولهم القديمة من الشعر الذى يستعرض فيه الشعراء
فخار آبائهم وتاريخ أنسابهم وأمجاد أصولهم • كل ذلك يعد مؤهلات
تجعل له الأهمية فى الحكم والقيادة دون سواء • وجند بعض الناس
أنفسهم أثناء التدوين العام لجمع ما ذكر فى الأحساب والأنساب بدافع
الولاء لبعض الأحزاب وانيل من غيرها •

وثمة دافع قوى من دوافع التدوين وهو الانفتاح العربى على
بلدان العجم حيث الفتوحات الاسلامية الكثيرة والمتلاحقة ، وما نتج
عنها من دخول غير العرب فى الاسلام وانكبابهم على التراث العربى
والاسلامى حفظا وفهما ودراسة • وهذا لا يكون من المحفوظ فقط ولكن
أيضا من المكتوب • وبالطبع ملغات البلاد المفتوحة ليست العربية وهم
حين يدخلون فى الاسلام يتكلمون العربية ، وربما يحدث اللحن
والتصحيف والتحريف فيما يقرعون ويروون ، وهذا له آثاره الضارة
على التراث العربى والاسلامى اذا لم يكن مكتوبا ومسجلا حتى يرجع
اليه عند القراءة والمطالعة ، وعند تصحيح المحرف ، وبخاصة أن اللغة
فى أول أمرها لم تكن منقوطة ومضبوطة بالشكل فى الكتابة ، وهذا أدعى
الى التحريف والتصحيف ، فكان لابد من الكتابة والتدوين بالحروف
العربية المنقوطة والمضبوطة •

ولما كان الخلفاء والأمراء عربيا خلصا يفهمون اللغة العربية
ويتذوقونها ، ويعرفون مضائق الشعر ومخارجه ، وصلاتهم وثيقة

بأصولهم القديمة وقبائلهم العريقة ، فكانوا يحبون الشعر ويقدونه ويقوهونه ويثييون عليه ، وفي كثير من الأحيان كانوا يطلبون من الشعراء المولدين لهم انشاد بعض القصائد والمقطوعات القديمة ، ويحسون في معانيها بما يوافق أذواقهم وأهواءهم فيبتهجون ويسرون اسماءها ، ويثييون الشعراء الذين أنشدوها بين أيديهم . وهذا الأمر كان معروفا في العصور الأدبية القديمة عند الخلفاء والشعراء وبخاصة في العصرين الأموي والعباسي . ولذلك كان الشعراء والنقاد يهتمون بجمع الشعر وتدوينه لاستذكره وانشاده كلما تطاب الأمر . بل شغل كثير من الناس أنفسهم بهذا الجمع والتدوين طمعا في الغنى والصيت .

وهناك قضية العلم والاشتغال به سواء في ذلك تفسير القرآن الكريم وشرح الحديث النبوي الشريف ، وأيضا في قضايا النحو واللغة والاشتقاق اللفظي بأبيات من الشعر الجاهلي والإسلامي . ولذلك كان الشعر يدون بطريق غير مباشر خلال كتب اللغة والأدب وسائر العلوم .

وهناك الأذواق الشخصية في النصوص المختارة للتدوين لدى العلماء السابقين الذين احتكموا إلى أذواقهم في ذلك ، دراعين المستوى الفني في اختيارهم وتدوينهم ، علما بأن هذه الأذواق كانت مختلفة ، فمنها ما يميل إلى القصائد الطيول ، ومنها ما يميل إلى ما فيه حكمة أو فخر أو تفسير لغوي ... أو ما إلى ذلك . وهذا كله في نطاق من دواعي التدوين ودوافعه الهامة ، ويدلنا على تباين النفوس واختلاف بواعثها وحالاتها في قراءة الأدب وحفظه واستذكره من شخص لآخر ، وعند النفس الواحدة من وقت لآخر في الحالات المختلفة ، فإنا نلاحظ الشخص إلى قراءة المديح وحفظه وأنا إلى قراءة الغزل وثالثنا إلى قراءة الحكمة والتأمل في معانيها ... وهكذا . ومن أراد أمثلة واضحة على اختلاف الأذواق وتباينها في اختيار النماذج المدونة فليرجع إلى

المفضليات والأصمعيات ، وجمهرة أشعار العرب والحمامة • فكل منها مختلف في المنهج والطريقة عن بقية المختارات الأخرى •

ولما كانت القصيدة من الشعر الجاهلى متعددة الأغراض والموضوعات ، فكان من حكمة الشعر والمهتمين به من يفهم عند بعض الأغراض بالحفظ والرواية دون غيرها • وربما اختلطت النماذج الشعرية دون نسبتها إلى أصحابها ، وربما اختلطت النماذج في نسبتها مع غيرها إلى غير أصحابها ، وبخاصة التي تتفق في الوزن والقافية ، وهذا ما أدى إلى ضرورة التدوين والتدري من صحة نسبة النصوص إلى أصحابها ، ولم تستطع وجمع متفرغها ، ولذلك كانت مهمة المدونين شاقة وعسيرة ، وهي في الوقت ذاته هامة • وربما أهمل بعض المدونين في تدوين النصوص المجهولة النسب فضاع أكثرها نتيجة لذلك •

وأكثر ما يختلط الأمر في التدوين على المدونين حينما يحتاجون إلى الرجوع إلى حفظ النصوص لتوثيق ما بين أيديهم من نصوص مدونة. أو لتدوين ما لم يكن مدونا ، والذواكر غالبا ما تخزن وبخاصة أن المولعين من الرواة بحفظ الشعر وروايته كانت تتعدد القصائد والمقطوعات في أذهانهم حتى تبلغ الآلاف • وربما غاب عن ذواكرهم القائلون فنسبوا النصوص لغير أصحابها ، أو جمعوا بين نصوص تتحد في الوزن والقافية في نسبتها إلى شاعر ليست جميعها له • وأدى طول الفترة الزمنية بين عصر الابداع الأدبي وبين عصر التدوين إلى كثير من هذا الاختلاط في نسبة النصوص الأدبية إلى أصحابها ، وهذا ما عطن إليه بعض الشعراء بعد عصر التدوين ، إذ أنه يروى أن ذا الرمة قال لموسى بن عمرو : « أكتب شعري ، فالكتاب أعجب إلى من الحفظ ، لأن الأعرابي ينسى الكلمة التي قد تعب في طلبها ليلة ،

فيضع في موضعها كلمة في وزنها ، ثم ينشدها الناس ، والكتاب لا يفيق
ولا يبدل كلاما بكلام » (٢) .

أى أن الراوى كان ينسى الكلمة من البيت فيضع كلمة بدلا منها ،
ولا يجد الرواة غضاظة في ذلك ، وربما لا تؤدى المعنى الذى وضعت
له مثلما كانت الكلمة المحذوفة أو الضائعة والتي تعب الشاعر في طلبها
ليلة كما يقول ذو الرمة .

وربما غير الرواة كلمة بكلمة أخرى أليق أو أصح منها في المعنى ،
وقد روى عن امرئ القيس بيته :

فاليوم أشرب غير مستحقب اثما من الله ولا وأغل

فقانوا : حذف الاعراب وليس بالحسن ، وذهبوا الى أنه يريد
(أشرب) فحذف الضمة ، وكذلك غيره ، فجعله بعضهم (فاليوم
فاشرب) بصيغة الأمر . وزعم قوم أن الرواية الصحيحة « اليوم
أسقى » وبذلك كان المبرد يقول (٣) .

وفي قول عدى بن زيد :

ففاجأها وقد جمعت جموعا على أبواب حصن مصلتين
فقددت الأديم لراهسيه وألفى قولها كذبا ومينا

فقالوا : إن في قوله « مينا » سناد ، ولذلك أراد المفضل الضبى
أن يفر من هذا السناد فغيرها وجعلها « كذبا مينا » (٤) .

ومن ذلك أيضا ما تحدث به أبو هاتم السجستاني عن الأصمعي

(٢) العمدة لابن رشيق ٢/٢٠٥ تحقيق : محمد محيي الدين
عبد الحميد - المكتبة التجارية بالقاهرة ١٩٥٥ م .

(٣) الموشح للمرزباني ص : ٨٥ تحقيق : علي البيجاوي - المطبعة
السلفية ١٩٢٩ م .

(٤) العمدة ٢/٢٧٤ .

إذ يقول : « قرأ الأصمعي على أبي عمرو بن العلاء شعر الخطيئة
فقرأ قوله :

وعزرتني وزعمت أنك لابن بالضيف تامر
أي كثير اللبن والتمر ، فقرأها : « لا تنى بالضيف تامر » أي
لا تتوانى عن ضيفك تامر بتحصيل القرى له . فقال له أبو عمرو :
أنت والله في تصحيفك هذا أشعر من الحية » (٥) .

أي أن الرواة كانوا أحيانا يغيرون في بعض ألفاظ الشعر في الرواية
وفي التدوين ، أما لصحة اللغة وتصويبها ، وأما لتجاشي عيب في
القافية ، وأما لأن المعنى في الكلمة الجديدة أليق في مكانه من الكلمة
الأولى التي قام الراوي أو المدون بحذفها وابدالها بغيرها ، ولا يجدون
غضاضة في ذلك .

ولعل أبا تمام كان يغير في بعض كلمات حماسته من هذا المنطلق ،
وهذا ما أشار إليه المرزوقي في مقدمته لشرح ديوان الحماسة حيث
يقول عن أبي تمام « حتى أنك تراه ينتهي الى البيت الجيد فيه لفظة
تشينه فيجبر نقيصته من عنده ، ويبدل الكلمة بأختها في نقده » (٦) .

وهذا ما يدفع الى التدوين ويجعل له أهمية كبرى ، إذ أن الرواة
السابقين كانوا أصحاب سلايق نقية سليمة ، وهم نقاد بطبعهم ، يضعون
الكلمة في موضعها الصحيح ، ولكن فيما بعد فسدت الأذواق وضعفت
السلايق ، وأصبح النقد مكتسبا أكثر منه فطرة ، ولذلك لا يوثق من
وضعهم الكلمات في مواضعها الصحيحة فيترتب على ذلك فساد المعنى
والتركيب .

وهناك أمر له أهميته القصوي في نظير المدونين في عصر التدوين .

(٥) المزمع للسيوطي ٣٥٥/٢ دار احياء الكتب العربية بالقاهرة .

(٦) مقدمة المرزوقي لشرح الحماسة ص ١٣ ، ٢٤٢ ، ٢٤٣ .

ما يحمل على أجمال ، وأما كتابة بخط التلميذ بعد السماع من الأستاذ أو النقل من الكتب ، كما قال ابن السكيت عن نفسه ، أنه كان يأخذ من أبي عمرو الشيباني ويكتب من كتبه ، وأما كتابة بخط الأستاذ نفسه كما كان من أبي عمرو الشيباني (٨) .

وبعد أن انتهت مرحلة التدوين الأولى ، وهي جمع شتات الشعر والنثر وسائر العلوم والمعارف في كتب . بدأت مرحلة جديدة ترتبت على الأولى ، وهي مرحلة التصنيف والتأليف والشرح واستنباط الأحكام والنظرة التأملية الدقيقة في المجموع من العلوم والمعارف لاستخراج علوم ومعارف أخرى منها . وفي ذلك يقول عمر الدقاق : « ويوسعنا أن نقبين خلال هذه الحركة العلمية الدائبة مرحلتين متعاقبتين كانت الأولى منهما أساسا للثانية ، وهما مرحلة التدوين التي تقوم على الجمع والتقصى والتسجيل والرصد . ثم مرحلة التصنيف والتأليف التي تناولت المواد المجموعة بالتنظيم والتنسيق والتبويب ، وبالتالي التحليل والاستنباط والمقارنة والابتكار . فكان الفقه والتشريع نتيجة لتدوين الحديث ، والمعاجم نتيجة لتدوين اللغة ، والنقد الأدبي نتيجة لجمع منظوم العرب ومنثورهم » (٩) .

وهكذا كان التدوين منذ نشأته عند العرب في الجاهلية . وهكذا كانت مراحل حياته ونهضته إلى أن كان التدوين العام ، وما ترتب عليه من دراسات واستنباطات ومقارنات تفرعت على آثارها علوم ومعارف جديدة من صلب العلوم الحديثة ومعنى هذا أن المدارك تتسع باستمرار ويتسع معها حجم الثقافة والفكر . ومعنى هذا أيضا أنه لولا التدوين وتقعيد العلوم وجمعها في كتب حتى يرجع إليها من آن لآخر لما تمت الثقافة ولتغير الفكر في أحده منذ زمن بعيد .

(٨) تاريخ الأدب الجاهل ٢١٤/١ د. علي الجندي .

(٩) مصادر التراث العربي من ١٧ مكتبة دار الفروق - بيروت .

خاتمة

وبعد : فهذه الخراسية التي قمنا بها حول تدوين الأدب وغيره من سائر العلوم خلال العصر الجاهلي وفي القرنين الأول والثاني الهجريين عرفنا من خلالها أن الكتابة كانت معروفة لدى بعض الناس في الجاهلية وأنها كانت وسيلة تدوينهم لأدبهم وبعض معارفهم كما شهد بذلك غير واحد من الباحثين ، والأدلة على ذلك موجودة ومذكور بعضها في ثانيا هذا البحث . ولما كانت الكتابة بدائية ووسائلها كذلك ولم يكن يعرفها الا القليل بالنسبة لمجموع الناس في عهدهم فقد صدق عليهم الحكم بأنهم أمة أمية . وأن القليل من الكتابة والتدوين لا يلغى التعميم عليهم بذلك . ولكن حين جاء الاسلام حض على العلم والازدياد منه فانه وسيلة الحياة وأساسها ولا تقوم الحياة بدون العلم بكل فنونه وفروعه . ولما كانت الكتابة والقراءة هما أداتا العلم فقد حث عليهما القرآن الكريم والحديث الشريف في أكثر من موضع . واستخدمته الكتابة في نشر الدعوة الاسلامية شأنها شأن الخطابة تماما . ثم اتسعت الحاجة اليها في عصر صدر الاسلام ، حيث دون القرآن الكريم وبعض الحديث الشريف ، وحيث دونت كتب النبي — صلى الله عليه وسلم — وكتب خلفائه الراشدين .

وحين كان العصر الأموي واتسعت أرجاء الدولة الاسلامية ووجدت الأمصار المختلفة زادت الحاجة الى الكتابة والتدوين أكثر وأكثر ، ووجدت الحاجة الى تدوين العلوم والمعارف المختلفة ، فاشتغل الأدباء والنقاد والعلماء على اختلاف اتجاهاتهم العلمية بالكتابة والتدوين لسائر العلوم والفنون المعروفة آنذاك ، فدونوا التفسير والحديث والتاريخ والمغازي والنحو والشعر والأدب ... وغير ذلك من العلوم المختلفة .

ولكن في نهاية القرن الثاني وبداية القرن الثالث الهجرى • وجدت الحاجة الماسة والدواعى الملحة للتدوين العام لسائر العلوم والفنون ، فاشتغلوا بذلك واهتموا اهتماما كبيرا بجمع شتات العلوم وتدوينها في كتب سواء من المكتوب قليل ذلك أو من المروى شفويا • حفظا للنتاج العلمى والأدبى من الضياع بفقد ما كتب مسبقا أو بموت الرواة ، أو بضعف الذاكرة • وكل ذلك كان واردا في آونة التدوين ولذلك كانت هذه الأمور من حوافز التدوين الهامة في هذا الوقت •

نسأل الله تعالى أن نكون قد وفقنا لاختيار موضوع هذا البحث وللمعالجة جوانبه • أنه نعم النصير وبالإجابة جدير • وهو خير مأمول وأكرم مسئؤل •

مراجع البحث

- ١ - الانتقان في علوم القرآن - جلال الدين السيوطي - الجزء الأول - عالم الكتب بيروت •
- ٢ - أدب الخلفاء الراشدين - جابر قميحة - دار الكتاب المصري •
- ٣ - أشهر مشاهير الاسلام في الحزب والسياسة - الجزء الرابع - رفيق المعظم - دار الحياة بيروت •
- ٤ - الأصمعيات - الأصمعي - دار المعارف المصرية ١٩٦٤م •
- ٥ - اعجاز القرآن لنباقلاني - طبعة أولى - مصطفى البابي الحلبي ١٩٧٨م •
- ٦ - الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني - الجزء السادس - طبعة دار الكتب المصرية •
- ٧ - الامامة والسياسة لابن قتيبة - الجزء الأول - القاهرة ١٩٦٣م
- ٨ - البيان والتبيين للجاحظ - الجزء الثاني - تحقيق عبد اسلام هارون - القاهرة ١٩٤٨م •
- ٩ - تاريخ الأدب العربي - ترجمة ابراهيم الكيلاني - الجزء الأول طبعة دمشق ١٩٧٢م •
- ١٠ - فريخ الأدب الجاهلي - د/ علي الجندي - مكتبة الجامعة العربية - بيروت الطبعة الثانية ١٩٦٩م •
- ١١ - تاريخ الأمم والملوك - الطبري - الجزء الثالث - تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم - دار المعارف بالقاهرة •

١٢ - تقييد العلم للخطيب البغدادي - تحقيق يوسف العشي -
دمشق ١٩٤٩م •

١٣ - جمهرة أشعار العرب في الجاهلية والاسلام لأبي زيد القرشي
القاهرة ١٩٨١م •

١٤ - جمهرة رسائل العرب - أحمد زكي صفوت - الطبعة الثانية -
مصر ١٩٣٧م •

١٥ - حماسة أبي تمام - تحقيق د/ عبد الله عبد الرحيم عسيلان -
طباعة ونشر ادارة الثقافة والنشر بجامعة محمد بن سعود
الاسلامية •

١٦ - حياة محمد - د/ محمد حسين هيكل • الطبعة السادسة عشر
- دار المعارف بالقاهرة •

١٧ - الفراج لأبي يوسف يعقوب بن ابراهيم - دار الاعتصام -
القاهرة ١٩٨١م •

١٨ - خزائن الأدب للبغدادي - الجزء الثاني - القاهرة ١٩٣٠م •

١٩ - الخصائص لابن جني - الجزء الأول - طبعة الهلال ١٩١٣م •

٢٠ - خطط القريري - الجزء الأول - طبعة دار التحرير للطباعة
والنشر •

٢١ - دراسة في مصادر الأدب - د/ الطاهر مكي - دار المعارف
الطبعة السادسة ١٩٨٦م •

٢٢ - دراسات في الأدب العربي في أزهي عصوره - القسم الاول -
د/ محمد عبد المنعم خفاجي - مطبعة البدني بالقاهرة •

- ٢٣ - دراسات في الأدب العربي في العصر الأموي - د/ السيد عبد القادر عويضة ، مطبعة الشروق الجامعية .
- ٢٤ - دراسات في المكتبة العربية - محمد أحمد خلف الله - القاهرة ١٩٥٨م .
- ٢٥ - سيرة ابن هشام - الجزء الأول - الطبعة الثانية - مصطفى البوابي الحلبي .
- ٢٦ - سيرة عمر بن الخطاب - ابن الجوزي - المطبعة المصرية بالأزهر ١٣٣١هـ .
- ٢٧ - شرح الحماسة للمرزوقي - المقدمة - نشر أحمد أمين وعبد السلام هارون ١٩٥١م .
- ٢٨ - الشعراء والشعراء لابن قتيبة - الجزء الأول - تحقيق : أحمد محمد نساكر - الطبعة الثالثة ١٩٧٧م .
- ٢٩ - الشهاب الراصد - «محمد لطفي جمعة» - القاهرة ١٩٢٦م .
- ٣٠ - طبقات الشعراء لابن سلام الجمحي - طبعة ليدن ١٩١٦م .
- ٣١ - الطبقات الكبرى لابن سعد - دار صادر بيروت ١٩٥٧م .
- ٣٢ - العبد الإسلامي - د/ شوقي ضيف - دار المعارف - الطبعة السابعة ١٩٧٦م .
- ٣٣ - العقد الفريد لابن عبد ربه - الجزء السادس - مطبعة الاستقامة ١٩٤٠م .
- ٣٤ - العمدة لابن رثيق - الجزء الثاني - تحقيق الشيخ محمد محيي الدين عبد الحميد - المكتبة التجارية بالقاهرة ١٩٥٥م .
- ٣٥ - فتوح البلدان للبلاذري - طبعة أوربا .

- ٣٦ - فتوح الشام للواقدي - الجزء الأول - دار صادر - بيروت .
- ٣٧ - فجر الاسلام - أحمد أمين - مكتبة النهضة بالقاهرة .
- ٣٨ - الفن ومذاهبه في النثر العربي - د/ شوقي ضيف - دار المعارف - ط ٩ .
- ٣٩ - الفهرست لابن النديم - المكتبة التجارية بالقاهرة ١٣٤٨ هـ .
- ٤٠ - الكامل في اللغة والأدب للمبرد - الجزء الأول - القاهرة ١٩٣٦ م
- ٤١ - المزهرة نلسيوطي - الجزء الأول - دار احياء الكتب العربية .
- ٤٢ - مسند الامام أحمد بن حنبل - دار صادر - بيروت .
- ٤٣ - المصادر الأدبية واللغوية في التراث العربي - د/ عز الدين اسماعيل - الطبعة الثالثة - دار المعارف المصرية .
- ٤٤ - مصادر التراث العربي - د/ عمر الدقائق - مكتبة دار الشروق - بيروت .
- ٤٥ - مصادر الشعر الجاهلي - د/ ناصر الدين الأسد - الطبعة السادسة - دار المعارف .
- ٤٦ - معجم الأدياء - ياقوت الحموي - نشر الرفاعي .
- ٤٧ - مغازي رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عروة بن الزبير - تحقيق د/ محمد مصطفى الأعظمي - نشر مكتبة التربية العربية لدول الخليج - الرياض ١٩٨١ م .
- ٤٨ - المفضليات - المفضل الضبي - طبعة دار المعارف ١٩٦٣ م .
- ٤٩ - مقدمة ابن خلدون - طبعة دار الشعب .

٥٠ - مقدمة التبريزي نشرح ديون الحماسة - التأليف والترجمة والنشر *

٥١ - مقاتل الطالبين لأبي الفرج الأصفهاني - شرح وتحقيق السيد أحمد صقر - مطبعة عيسى الحلبي - القاهرة ١٩٤٩م *

٥٢ - الموشح لمرزبانى - تحقيق على البيجاوى - المطبعة السلفية ١٩٢٩م *

٥٣ - نشأة الكتابة الفنية فى الأدب العربى د/ حسين نصار - مكتبة النهضة المصرية ١٩٦٦م *

٥٤ - نهج البلاغة - للإمام على بن أبى طالب - الجزء الثالث - شرح الشيخ محمد عبده - بيروت *

٥٥ - نهاية الأرب، فى فنون الأدب للنويرى - الجزء السادس - دار الكتب بالقاهرة *

٥٦ - وفيات الأعيان لابن خلكان - الجزء الثانى - تحقيق احسان عباس - دار صادر - بيروت *

٥٧ - ...

٥٨ - ...

٥٩ - ...

٦٠ - ...

الفهرس

مقدمة

٣

الفصل الأول

الكتابة والتدوين في العصر الجاهلي

٦

١٤

— أدلة التدوين في العصر الجاهلي

الفصل الثاني

الكتابة والتدوين في عصر صدر الاسلام

٢١

٢٣

— تدوين القرآن

٢٧

— تدوين الحديث الشريف

٢٩

— الكتب والعهود

الفصل الثالث

الكتابة والتدوين في العصر الاموي

٤٠

٤١

— التفسير

٤٤

— المغازي والسير

٤٥

— الحديث

٤٦

— النحو

٤٦

— الشعر والأدب

٤٦

— الفقه الاسلامي

٤٧

— أصول الدين

الفصل الرابع

دواعي التدوين العام ومنهجه

٤٨

٥٧

خاتمة

٥٩

مراجع البحث

٦٤

الفهرس